شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام
الرؤية الفكرية، والتشكيل الجمالي

دكتور/ محمد الدسوقي محمد إبراهيم
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر، فرع الزقازيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

(المقدمـــــــــــــة)

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وفصاحة اللسان، وبعد :

فكان الشعر العربي ومازال المُعَبِّر عن آمال وآلام قومه، يترجم عما بداخلهم ويسجل مآثرهم، ومازالت كنوز هذا الشعر ونفائس ذخائره تُخرج لنا كل يوم نورًا من لآلئها، ووهجًا من جواهرها لتثبت غنى هذه الأمة بتراثها، وترد على أعدائها المناوئين لها المتعمدين تشويه كل جميل فيها.

يأتي هذا البحث ليضيف لبنة جديدة لصرح الشعر العربي في عصر صدر الإسلام، هذا العصر الذي طالما اتهم بضعف الشعر بسبب مجيء الدين الحنيف ، وانشغال المسلمين أول الأمر بتعاليم الإسلام وأحداثه... إلخ هذه الدعاوى الباطلة، فيحاول الإسهام في الكشف عن مضمون جديد لم يأخذ حقه من العناية والدراسة بعد استقراء نماذجه الشعرية وتحليلها تحليلًا موضوعيًا وفنيًا، فيكشف عن جماليات المضامين الشعرية الجديدة ،وما تضمنته من رؤى وأفكار، ويقف مع التشكيلات الفنية التي اتكأ عليها الشعراء في إبداع فنهم..

إنه شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام ؛ أحد أهم المضامين التي جدت بسبب كثرة أحداث الدين الجديد، والمتمثلة في اضطهاد المشركين للمسلمين، وكثرة الغزوات، كما أن هذا الجانب يتميز بأنه لون من التجديد داخل الغرض القديم (الرثاء)،

فمن المعلوم عند النقاد أن الإسلام عندما جاء تراجعت موضوعات كشعر الهجاء القبلي الذي يُحيي العصبيات ،ويُثير الضغائن ، وغيره مما اشتمل على فُحْشِ القول، وجَدّت موضوعات كشعر الدعوة، والدفاع عن الإسلام، ومدائح النبي – صلى الله عليه وسلم– وغير ذلك، بل تطورت موضوعات قديمة، أو جَدَّتْ فيها جوانب لم تعرف في الشعر الجاهلي من قبل ،ومنها رثاء الأعضاء ضمن موضوع شعر الرثاء.

ومما دفعني للكتابة في هذا الموضوع رغبتي الملحة في الكشف عن جانب من جوانب نضج الشعر وازدهاره في عصر صدر الإسلام ،وإيماني الشديد بأنه عصر ثراء وتطور أدبي ونضج فني، نتيجة تعاليم الدين الجديد، وأحداثه الجسام التي عايشها الشعراء في هذا العصر، والتي رآها قِلّةٌ سبب ضعفه ، بينما المنصف المدقق يراها سبب قوته ونهضته، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال دراسة جانب، أو غرض شعري لم يحظ بالدرس من قبل، دراسة علمية تلتزم أصول الدرس الأدبي وخطواته، للكشف عن بعض جوانب العظمة في موروثنا الأدبي، وليكون دافعا للباحثين علي المضي في الكشف عن عظمة تراثنا الإنساني الذي مازال ينبض حياة ونشاطًا وعطاءً.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن تأتي الدراسة في مقدمة ،عَرَّفْتُ فيها بالموضوع وأهميته، ودوافع بحثه، وخطته، والمنهج الذي التزمته، وأبرز الصعوبات التي واجهتني أثناء جمع مادته وكتابته، ثم جاء التمهيد ، وفيه أشرت بإيجاز إلى قضية ضعف الإسلام للشعر وإبداء رأي موضوعي فيها من خلال الأدلة على ذلك، ثم عرفت بفن الرثاء، وقيمته، وأبرز مضامينه التي شاعت في العصر الجاهلي، وما استمر منها في عصر صدر الإسلام، وما جَدّ ،لتعلقها بموضوع البحث، ثم جاءت الدراسة في فصلين: تناولت في الأول منها: الجوانب الموضوعية لرثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام، واشتمل على عدة مباحث: رثاء الرِّجْل، ورثاء اليَدّ، ورثاء العين، ورثاء الأحشاء.

ثم جاء الفصل الثاني: والذي أشرت فيه إلى أبرز الظواهر الفنية التي تَميَّزَ بها شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام، وذلك بالوقوف مع بعض الأدوات التي تَشكَّلَ من خلالها هذا الفن الشعري. ثم جاءت الخاتمة وفيها ذكرتُ أبرزَ النتائج التي استنبطتها من

خلال استقراء النماذج الشعرية لهذا الغرض ودرسها وتحليلها. ثم ثبت المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وتمثلت أبرز صعوبات البحث في جمع مادته العلمية من مظانها المختلفة، فالنتاج الشعري لشعر رثاء الأعضاء لم يجمع في ديوان مستقل من قبل، ومن ثم فهي قبل هذه الدراسة متفرقة في كتب التاريخ والسير مبعثرة حسب الوقائع والأحداث، كما أنه لم يأت منها قصائد مكتملة إلا القليل، وأكثرها مقطوعات، ونتف، وربما البيت اليتيم. فاستعنت بالله وأخذت أقرأ شعر الغزوات في كتب السير والتاريخ والمغازي، والدراسات التي دارت حول شعر ذوي العاهات كالبرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ وغيره، حتى جمعت من هذه المادة – بتوفيق من الله وعونه – أقصى ما استطعت أن أجمعه في هذه الدراسة والتي لم توجد مجمعة بهذه الصورة في كتاب من قبل. ومن الصعوبات التعريف بقائل هذا الشعر لاسيما أن أغلبهم ليس من الشعراء المعروفين بالشعر، فأغلبهم ممن أنطقتهم الأحداث، ومن ثم لم تعن المصادر بدراستهم وجمع أشعارهم التي جاءت متفرقة في تراجمهم.

أما بالنسبة للدراسات السابقة فتمثلت في كتاب " النص الشعري في عصر صدر الإسلام وبني أمية " للدكتور عبده بدوي – رحمه الله– والذي لم يدرس فيه إلا قصيدة واحدة يتيمة في رثاء اليد للشاعر عبد الله بن سبرة الحرشي وهي التي أوحت إليَّ بفكرة هذا البحث، ومما وقفت عليه بعد ذلك وأنا أتتبع الموضوع وأستقصي مادته إشارة موجزة إلى هذا الغرض في كتاب "شعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام" للدكتور النعمان القاضي، وقعت في ورقة ونصف الورقة ذكر فيها بعض أبيات قصيدة عبد الله بن سبرة آنفة الذكر، وبيتين في رثاء الرِّجْل، وبيتًا يتيمًا في رثاء الأحشاء، ثم أخذت أتتبع هذا الغرض فما وجدت أحدًا جمع مادته ووقف معها بالدراسة من قبل.

أما المنهج الذي سرت عليه والذي فرضته عليّ طبيعة الدراسة – إن جاز ذلك – فهو المنهج المتكامل الذي ينبني على معطيات المناهج الأخرى ليفيد منها مجتمعة، مع

الالتزام في كل خطوة في الدراسة بطرائق البحث العلمي المبنية علـــى اســـتقراء المـــادة المدروسة وتحليلها لاستخراج النتائج.

وبعد..

فقد حاولت جهدي في هذه الدراسة أن أقوم بشيء من واجبي الأكاديمي ،تجاه تراث أمتنا التليد في الكشف عن بعض جوانبه ،بصورة تتسم بالمنهج العلمي، وأرجو من الله أن أكون قد وفقت فيما رمته،﴿...وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، إنه حسبي ونعم الوكيل.

دكتور
محمد الدسوقي محمد إبراهيم
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر، فرع بالزقازيق

التمهيـــــد

أولا : الإسلام والشعر :

مَثَّل الشِّعرُ للعرب أغلى وأنفس ما يمكن أن يعتز به الرجل العربي؛ إذ هو علمهم الذي لم يكن لهم علم أصح منه،[1] وديوان حياتهم وسجل أيامهم ففيه آلامهم وآمالهم، وأفراحهم وأتراحهم، به تغنوا بأمجادهم، وحفظوا تاريخهم وأنسابهم، ومن ثم حفظه الرجال والنساء والغلمان والإماء وروته الأجيال، كما رددوه في المحافل وغيرها من المناسبات معبرين به عن عواطفهم وخلجات أنفسهم...

ثم جاء الإسلام فأعلى من شأن الإنسان وصان عليه كرامته أن تمتهن أو تدنس بعبادة غير الله بالسجود للأصنام أو الأوثان، وارتقى بالعقل وخلصه من كثير من الترهات... وجاءت تشريعاته في أفصح الأساليب وأبلغ الكلم متمثلة في كلام رب العالمين، وأحاديث النبي الأمين (ﷺ) الذي قال في حديثه" أنا أفصح العرب بيد أني من قريش"،[2] فانبهر العرب ببلاغة القرآن وتأثروا بمعانيه وعكفوا على الاستماع إليه وحفظه، وكذلك عنوا بحفظ ورواية ما كانوا يسمعونه من فصيح كلم رسول الله (ﷺ)، فما أكثر الروايات التي حفلت بها كتب السير والتي نقلت لنا مشهد العقلاء من قريش وذوي الإنصاف منهم؛ إذا استمعوا للنبي (ﷺ) يتلو كلام الله " فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه، ورقته حين يرق، وشدته حين يشتد"،[3] والعرب هم أهل البيان، وأجدر الناس على معرفة منازل الكلام بل وفضل كلام على آخر، فكان انبهارهم بالقرآن ناتج من كون " القرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه... جمع من وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته،

---

(1) روى ابن سلام الجمحي عن ابن سيرين قال: قال عمر بن الخطاب: " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ط المدني، القاهرة ١٩٧٤م، جـ١، صـ ٢٤.

(2) تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ط دار الكتب العلمية (بيروت)، ط الأولى ١٤١٩هـ/١٩٨٩م، جـ٤، صـ١٣.

(3) الأدب في عصر النبوة والراشدين، د/ صلاح الدين الهادي، ط الخانجي بالقاهرة، ط الثالثة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، صـ٣٥.

وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهدة، وتشكله على جهته... مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسنا ورفعة ".[1] وبهذا كان القرآن الكريم النموذج الأمثل للفصاحة والبلاغة العربية الغنية بألوان البيان والجمال الدافعة لازدهار الحياة الأدبية بشتى فنونها عند المسلمين.

وأرى أن ذلك كله مع ما حفل به الإسلام من أحداث مدعاة لازدهار الشعر وتطوره في عصر صدر الإسلام، بيد أن هناك فريقا من النقاد رأى غير ذلك، فاتهم الإسلام بإضعاف الشعر، ومن ثم انقسم كُلٌّ من تبنى هذه القضية بالاهتمام والدرس إلى فريقين، فريق يقول بلين الشعر وضعفه في عصر صدر الإسلام، وآخر يرى احتفاظه بمتانته وقوته بل نهضته وتطوره، وكل يحشد أدلته وحججه لتقوية موقفه، وتأييد ما ذهب إليه.

فمن الأدلة التي استند إليها القائلون بإضعاف الإسلام للشعر:

<u>أولا:</u> من القرآن الكريم: قول الله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.[2]

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾.[3]

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾.[4]

---

(1) إعجاز القرآن للباقلاني، ط دار المعارف بمصر ١٩٥٤م، صـ ٢٠٨ .
(2) سورة الشعراء الآيات : ٢٢٤ - ٢٢٧.
(3) سورة يس الآية : ٦٩ .
(4) سورة الحاقة الآية : ٤٩ .

ثانيا: من السنة المطهرة: قول النبي(ﷺ) "لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا خَيْرٌ لـه مِـن أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا" (١)

ثالثا: ما روى على ألسنة النقاد في كتب النقد القديم: فقد روى ابن سلام أن الأصـمعي تـ٢١٣ه قال: "الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره"، وقال مرة أخرى : " شعر حسان فـي الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام ، لحال النبي (ﷺ)"(٢).

ويقول ابن سلام تـ٢٣٢ه: "جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر، تشـاغلوا عنه بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته".(٣)

ويقول ابن خلدون تـ٨٠٨ :" انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا"(٤).

هذه هي أشهر الأدلة التي استند عليها القائلون بضعف الشعر في عصر مجيء الإسلام.

ومن ثم انبرى أصحاب الرأي القائل بأن الإسلام دعم الشعر وأضاف إليـه فـي معانيه وموضوعاته –وهو ما أذهب إليه ويؤكده هذا البحث– في الرد علـى أدلـة هـذا الفريق وتفنيدها.

فأما احتجاجهم بالآيات الكريمة من سورة الشعراء، فنورد تعليق ابن رشيق تـ ٤٦٣ه في كتابه "العمدة" على هذه الآيات الكريمات قوله: " باب في الرد على من يكـره الشعر" يقول: " فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقولـه تعـالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ

---

(١) روي هذا الحديث عن جماعة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم- منهم أبو هريرة، صحيح البخاري، تحقيق د/ مصطفى ديب البغا، ط دار ابن كثير، اليمامة (بيروت)، ط الثالثة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م . برقم :(١٤٦).

(٢) الشعر والشعراء، لابن قتيبة ، تـ أحمد محمد شاكر ، ط دار المعارف (مصر) ١٩٦٦م، ج ١، صـ ٣٠٥ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، جـ١، صـ٢٥.

(٤) مقدمة ابن خلدون، تـ د/ علي عبد الواحد وافي، ط دار نهضة مصر٢٠٠٦م، جـ٢ صـ٥٨١.

ٱلْغَاوُۥنَ ...﴾ [1] فهو غلط وسوء تأول لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله (ﷺ) ومسوه بالأذى فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله –عز وجل– ونبه عليهم فقال:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾،[2]يريد شعراء النبي (ﷺ) الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد قال فيهم النبي (ﷺ)"هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل"... انتهى كلامه[3].

وقال أبو هلال العسكري في تعليقه على الآيات الكريمة بعد أن أوردها: "واستثناء الله – عز وجل– في أمر الشعراء يدل على أن المذموم من الشعر إنما هو المعدول من جهة الصواب إلى الخطأ، والمصروف من جهة الإنصاف والعدل إلى الظلم والجور، وإذا ارتفعت هذه الصفات، ارتفع الذم، ولو كان الذم لازما لكونه شعرا لما جاز أن يزول على حال من الأحوال"[4].

وقال الزمخشري في تفسيره للآيات الكريمة: " إن هذه الآية وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ... نزلت في شعراء المشركين: عبد الله بن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب، ومسافع بن عبد مناف، وأبي عزة الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، قالوا : نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب، ويستمعون إلى أشعارهم وأهاجيهم ولذلك فهم الغاوون الذين يتبعونهم"[5].

---

(1) سورة الشعراء الآية : ٢٢٤ .
(2) سورة الشعراء الآية: ٢٢٧.
(3) العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محمد محيي الدين، ط دار الجيل (بيروت)، ط الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م، جـ١، صـ ٢٣.
(4) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، وآخرون، ط الحلبي، ط الأولى١٩٥٢/١٣٧١م، صـ١٣٢.
(5) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط دار الفكر (بيروت)، ط الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، جـ٢، صـ٤٤٠.

وأورد ابن كثير في تفسيره للآيات الكريمات لما نزلت: " والشعراء يتبعهم الغاوون "جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحه، وكعب بن مالك إلى رسول الله (ﷺ) وهم يبكون قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنَّا شعراء، فتلا النبي (ﷺ):﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ قال: أنتم، ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال : أنتم، ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ قال: أنتم[1].

وهذه النقول سواء من النقاد كابن رشيق وأبي هلال العسكري، أو من المفسرين-على اختلاف مدارسهم- كالزمخشري، وابن كثير؛ مفادها أن القرآن الكريم قسّم الشعراء إلى طائفتين، الأولى منهما: اتجهت بشعرها إلى ما ينافي تعاليم الدين وآدابه بل ووظفت فَنَّها لمحاربة الرسالة، وهذا هو الذي عابه رب العالمين وذمه في محكم آياته، وطائفة أخرى ارتقَتْ بفنها فوظفته في مدح الفضائل ونصر الحق وخدمة الدعوة، ونشر القيم والأخلاق، وهؤلاء من استثناهم رب العالمين بل ومدحهم.

كما نفهم من ذلك كله أن المعيب ليس الشعر جملة، وإنما نهج الشعراء وأسلوب تناولهم للمضامين التي تتعارض وما جاءت به الرسالة من اعتقاد وتشريعات وآداب.

وبالنسبة للآيتين الكريمتين من سورتي "يس، والحاقة" فسياق الآيتين هو نفي كون النبي(ﷺ) شاعرًا، وليس ذمًا في الشعر أو غضًا منه، قال ابن رشيق: " فلو أن يكون النبي (ﷺ) غير شاعر غض من الشعر، لكانت أميته غضًا من الكتابة، وهذا أظهر من أن يخفى على أحد"[2].

وكذلك المعنى نفى كون القرآن الكريم من جنس الشعر كما كان يدعي مشركو مكة فهو كلام رب العالمين، قال صاحب الكشاف عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ...﴾، : " كانوا يقولون لرسول الله (ﷺ) شاعر، وروى أن القائل عقبة بن أبي

(١) تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء عماد الدين ابن كثير، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط الأولى١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ٣، صـ١١٢.
(٢) العمدة : جـ ١، صـ ٦.

معيط، فقيل :﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ...﴾، أي وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو عن الشعر؟، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء من معانيه؟ وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه؟ فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت، اللهم إلا أن هذا لفظه عربي كما أن ذاك كذلك ..."[1].

أما حديث النبي (ﷺ) السابق ذكره "لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا خَيْرٌ له مِن أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا"، فَسَّرَ أبو داود هذا الحديث بأن المقصود: " أن يمتلئ قلبه حتى يشغله عن القرآن وذكر الله"،[2] وقيل المقصود شعر الهجاء والفحش، وسيأتي معنا موقف النبي(ﷺ) من الشعر بشيء من التفصيل.

وبالنسبة للرد على ما روي عن الأصمعي " أن الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر ..." فقد فند الدكتور سامي مكي العاني هذا القول ورد عليها بقوله :" وغير صحيح أن الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر، فهذا الرأي يخالف رأي النقاد الذين يجمعون على أن القوة والضعف مردهما إلى طبيعة الشاعر وموهبته، وصدق عاطفته، وكما تنفعل النفوس بعوامل الشر تنفعل بعوامل الخير، وقد يصل انفعالها بأسباب الخير أقصى درجاته، فيرتفع شعرها فيه إلى أسمى ذروته، وقد يكون انفعال الشاعر بحب الرسول (ﷺ) مثلا أشد وأقوى من انفعال الشاعر بحب غادته اللعوب "[3].

وقول ابن سلام:" جاء الإسلام، فتشاغلت العرب عن الشعر، تشاغلوا عنه بالجهاد..." فأرى أن هذا الرأي يجانبه الصواب تمامًا، لأن الجهاد الذي يُدَّعى بأنه كان سببًا في انصراف الشعراء عن قرض الشعر، هو نفسه العامل الرئيس في غزارة الشعر في عصر صدر الإسلام، وتجدد موضوعاته ومضامينه، وإن ما عرف اليوم في الدراسات الأدبية

(١) الكشاف : جـ ٣، صـ ٣٢٩.
(٢) سنن أبي داود، تحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ٤/ ٤١٤.
(٣) الإسلام والشعر، د/ سامي مكي العاني، ط سلسلة عالم المعرفة رقم (٦٦)، أغسطس ١٩٩٦م.

باسم شعر الفتوح الإسلامية –بمضامينه المختلفة– إنما هو نتاج هذا الجهـاد... والبحـث الذي نتناوله بالدرس "رثاء الأعضاء في شعر صدر الإسلام" مضمون جديد لم يعرف بهذه الصورة في العصر الجاهلي، وإنما كان وليد الإصابة والتضحية والبـذل فـي الغـزوات الإسلامية.

وأما قول ابن خلدون السابق "انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام..." فنراه فـي موضع آخر من مقدمته يمدح الإسلاميين ويراهم أعلى طبقة وأفصح كلمة من الجـاهلين وشعرهم، في معرض عقد موازنة بين الشعراء في عصر صدر الإسلام وآخـرين مـن شعراء العصر الجاهلي ومما قاله: "إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم، فإنا نجد شعر حسـان بـن ثابـت، وعمر بن أبي ربيعة، والحطيئة... أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة، وعنترة، وابن كلثوم، وزهير... والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقـة العاليـة من الكلام من القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما، فنهضت طبـاعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسـمع هـذه الطبقة ولم ينشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقًا مـن أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفًا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة"(١).

وهذه شهادة من ابن خلدون على قوة الشعر الإسلامي وأنه أصبح أمـتن نسـجًا، وأحسن ديباجة، وأصفى رونقًا بعدما استقى الشعراء من معين القرآن والسنة.

وهذا القول الأخير هو ما تبناه الدكتور شوقي ضيف في رده علـى مـن قـال بضعف الشعر في الإسلام ، فعند حديثه عن الشعر في العصر الإسـلامي يصـف حـال الشعراء في تناولهم للأحداث وتصويرهم للبيئة الجديدة بقوله :" ومضى كثيرون ينظمـون في هذا العصر لا مع الأحداث، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسـلام وهديه الكريم، فالشعر لم يتوقف ،ولم يتخلف في هذا العصر ، وهـذا طبيعـي لأن مـن عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية، وكانوا قد انحلت عقدة لسـانهم وعبـروا

(١) المقدمة ، صـ ٥٤٤.

بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم، فلما أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعوه وينظمونه..."[1]

ويقول في معرض رده على من اتهموا الإسلام بإضعاف الشعر، بعد أن ذكر الكثير من المصادر التي تحوي نتاج الإسلاميين من كتب الأدب والتاريخ: "... ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهرًا في صدر الإسلام وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين..."، بل ويذهب إلى ما هو أكبر من حد الدفاع أو الرد فيتبنى رأيًا يذهب إلى هدم كل ما قالوه ، وهو أن الأمر على عكس ما ادعوه فإن الإسلام كان سببًا في تطور الشعر ونبوغه، يقول: "ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالًا، فإن أحداثه حلت من عقد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه، فإذا بنا نجد مكة التي لم تعرف في الجاهلية بشعر كثير، يكثر شعراؤها، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها..."[2].

ومن خلال ما ذكر، يتبيّن لنا وَهَنُ أدلة القائلين بضعف الشعر في الإسلام، وبطلان حججهم، إما لسوء فهم النص، وعدم توظيفه في موضعه، أو عدم صحة دعواهم ومجانبتهم الصواب في أقوالهم.

وقبل أن أنتهي من هذا المبحث أحب أن أثبت موقف النبي (ﷺ) من الشعر من خلال ما وصل إلينا من الروايات لأن في ذكره تصويرًا وتوصيفًا للجانب العملي من حياة النبي (ﷺ) في تعامله مع الشعر والشعراء.

نشأ النبي (ﷺ) عربيا خالصا في بيئة عربية، وتذكر كتب السير أن النبي محمدًا (ﷺ) أرسل إلى البادية مسترضعًا على عادة أهل مكة ليشتد عوده ويستقيم لسانه، وأهل مكة يومئذ أهل فصاحة ولسان تجري الفصاحة والبلاغة في كلامهم بالفطرة والسليقة

(1) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، ط العاشرة (د،ت)، صـ ٤٢ وما بعدها.

(2) ينظر تفصيل هذه القضية في تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، د/ شوقي ضيف، صـ٤٢ وما بعدها.

العربية كما يجري الدم في عروقهم، فلا غرابة أن يستمع النبي (ﷺ) إلى إنشاد الشعر في نواديهم وأسواقهم، وجاء في الخبر أن الرسول (ﷺ) كان يحضر مع لداته سوق عكاظ، [١] وعكاظ يومئذ محفل الشعر ومنتدى الأدب. وروى أنه (ﷺ) وصف هذه الطبيعة الشاعرة للعرب في قوله: " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين "[٢].

كما مدح النبي (ﷺ) البيان وأهله وبين أثره ووقعه على نفوس سامعيه في قوله:" إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة أو لحكمًا"[٣]، وجاءت الروايات التي تثبت أن النبي (ﷺ) استمع إلى الشعر وشجّع عليه، وأشاد بقائله، وربما أثاب عليه في رواياتٍ كثيرة منها:

ما روي أن النابغة الجعدي حين أنشد النبي (ﷺ) قوله من الطويل:[٤]

وَلا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلاَ خَيْرَ فِيْ جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيْمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا

فبعد أن انتهى دعا له النبي (ﷺ) بقوله: " لا يفضض الله فاك ".

وروى أنه (ﷺ) استمع إلى أبيات العلاء بن الحضرمي التي يقول فيها من الطويل:[٥]

وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم تحيتك الأدنى فقد يدبغ النَّعلُ

فإن دحسوا بالكره فاعفُ تَكَرُّمًا وإن أخنسوا عنك الحديثَ فلا تسل

فإن الذي يؤذيك منه استماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

---

(١) الأغاني: لأبي الفرج الأصفهانيّ، ط دار الكتب المصريّة، القاهرة، (١٩٣٥) جـ٩، صـ ١٧.

(٢) العمدة :جـ ١/ صـ ٣٠.

(٣) رواه الإمام البخاريُّ في صحيحه، كتاب الطب، باب: إنَّ مِن البيان سحرًا، (برقم: ٥٧٦٧).

(٤) البيتان وردا في: جمْهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: لأبي زيد القُرَشي، ضمن مجموعة (المَشُوبات)، تـ على محمد البجاوي، ط نهضة مصر، (د،ت)، صـ ٢٧٥.

(٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي البغدادي، ط دار الكتاب المصري ٢٠٠٩، جـ٣، صـ ١٣٣.

فعلق (ﷺ) على الأبيات قائلا: "إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة أو لحكمًا"[١]

فهذه الروايات وغيرها تثبت أن النبي (ﷺ) كان يستمع للشعر ويتأثر بالمضمون الجيد، فيثني على صاحبه ويمدح فيه ذلك، بل وربما أثاب (ﷺ) عليه كما فعل بعد استماعه لقصيدة " البردة ، بانت سعاد " لكعب بن زهير حينما جاء النبي (ﷺ) تائبا فمدحه وأصحابه وأشاد بالدين، فكان أن عفَا عنه النبي (ﷺ) وكافأه بإعطائه البردة الشريفة... وغير ذلك من مواقف.

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام دور الشعر في المعارك التي نشبت بين المسلمين والمشركين وحث النبي (ﷺ) شعراء المسلمين على القيام بدورهم في الدفاع عن الإسلام وعن نبيه، فكان مما قاله (ﷺ) للأنصار" ما يمنع الذين نصروا رسول الله (ﷺ) بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم"[٢].

وكان (ﷺ) إذا سمع بهجاء شعراء مشركي قريش ينتدب حسانا للرد عليهم بقوله:" أجب عني " ومما قاله (ﷺ) لحسان: " اهج المشركين، فإن روح القدس معك "، وقال له أيضا: " إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله ". وفي أثر الشعر في معركة الإسلام قال (ﷺ) لحسان: "هيج الغطاريف على بني عبد مناف، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام". ونتج عن ذلك وجود طائفة من الشعراء أطلق عليهم شعراء الرسول (ﷺ) قال في حقهم: "هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل".

ويؤيد ما نذهب إليه من تقدير النبي (ﷺ) لدور الشعر والشعراء ما روته عائشة " أن النبي (ﷺ) بنى لحسان بن ثابت في المسجد النبوي منبرًا ينشد عليه الشعر".

كما أحب أن أشير إلى ظهور فن النقائض التي دارت بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين في عصر صدر الإسلام. والأدلة والروايات التي نقلت إلينا لتثبت موقف النبي (ﷺ) من الشعر وأنه كان يتأثر بكل شعر يدعو إلى فضيلة وينهي عن رذيلة

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه البخاري، في الأدب المفرد، برقم ٥٦٣.

كثيرة ومتواترة، ويكفي أن نختم بهذا الأثر الذي لخص موقفه (ﷺ) من الشعر حينما قال :" إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه، فلا خير فيه"[١].

ونخلص من ذلك كله أن الإسلام لم يقف من الشعر موقف العداء، ولم يكن يوما سببًا في إضعاف الشعر أو تشاغل المسلمين عنه كما ادعى بعض النقاد، بل نضج الشعر وتطورت موضوعاته الشعرية بتطور الأحداث، وكثر الشعراء واتسعت أخيلتهم ونمت صورهم وتعددت أساليبهم بسبب ما اطلعوا عليه من ألفاظ القرآن وأساليبه ونظمه...

ثانيا : فن الرثاء :

فن الرثاء أحد أغراض الشعر القديمة التي عرفها الشاعر العربي مع بدايات نظمه الشعري للتعبير عما يمور بوجدانه، فهو موضوع شعري وجداني إنساني يعبر عن معاني الفقد والألم والحزن والمواساة والتصبر... وغيره من المعاني التي لا يخلو من معايشتها أي إنسان، وفي هذا النوع من الشعر يتعرض الشاعر إلى " التفكر في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به هذا التفكر إلى معان فلسفية عميقة، فإذا بنا نجوب معه فلسفة الوجود والعدم والخلود"،[٢] ويرتبط المدلول اللغوي لكلمة (الرثاء) بالبكاء والميت... يقال: رثى فلان فلانا يرثيه مرثية إذا بكاه بعد موته، ورثوتُ الميت بكيته، وعددت محاسنه، وكذلك نظمت فيه الشعر[٣].

ومفهومه في الاصطلاح لا يبتعد كثيرا عن المفهوم اللغوي فالمقصود به بكاء الميت وذكر مناقبه شعرًا أو نثرًا.[٤] ويغلب على هذا اللون من الشعر الصدق الفني ،لأن حرارة العاطفة هي التي تشكله وتدفع عليه، فإذ به يخرج من حنايا النفس ليعبر عما يعتلجها من أوار الحزن وألم الحسرة. فالرثاء حسرات نفسية، وعبرات وآهات وشكوى،

---

(١) العمدة، لابن رشيق،جـ ٢، صـ ٢١.
(٢) فن الرثاء، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، ط الرابعة ١٩٩٥م، صـ٦.
(٣) لسان العرب، لابن منظور، مادة : (رثا)، ط دار صادر (بيروت)، ط الأولى (د، ت).
(٤) المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ط دار العلم للملايين، (بيروت)، ط الثانية ١٩٨٤م، صـ١٢٠.

وقلوب تشتعل فيها نار الحزن، وعيون تنزف دما أو تذرف دمعا لفقد حبيب، أو غياب قريب، أو رحيل صديق. وحول هذا المعنى سئل الأصمعي: " ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ فقال: لأنا نقولها وقلوبنا تحترق".(١)

وينقسم فن الرثاء بالنظر إلى مضامينه أو أسلوب تناول الشاعر له إلى ثلاثة فنون: (الندب، والتأبين، والعزاء). ففي الندب يصور الشاعر جلال المصيبة وشدة وقعها عليه أولا، وفيه تظهر ألفاظ الحزن، وعبارات الألم والأسى، فهو شارد منهار القوى في ذهول من وقع المصيبة، " ولعل أقدم صور الندب والنواح في شعرنا العربي هي صورة ندب الأهل والأقارب والنواح عليهم"(٢)، وفي التأبين تظهر صفات الميت ويشيد الشاعر بخصاله وتعداد محاسنه، ففي التأبين يكون " الرثاء الذي يتلمس الفضائل الإنسانية التي كان يتصف بها من يؤبنه الشعر، لا سيما الناحية التي برز فيها المرثي بروزًا واضحًا، لأن تلك الصفة هي التي تملك على الشاعر قلبه فيصدر رثاؤه عن عاطفة وإيمان وقوة وتأثير"،(٣) وفي العزاء يختلف أسلوب التناول فيسمو الفكر، ويتعرض الشاعر لحقيقة الموت والحياة، والوجود والعدم بصورة توحي بالرضا والتسليم ليسلى أهل الفقيد ويقابلوا المصاب بقلوب راضية ونفوس صابرة محتسبة.

القيمة الفنية لشعر الرثاء:

ارتبط فن الرثاء بحقيقة كتبها الله على جميع المخلوقات ،وهي الموت ،الذي جعله الله نهاية كل حي، هذه الحقيقة التي وقف الإنسان أمامها مشدوها عاجزًا ،لا يملك إزاءها إلا التحلي بالصبر والرضا بالقضاء... فكان الرثاء هو الأسلوب الذي عبر به عن آلامه ونَفَّسَ من خلاله عن مصابه وعزي نفسه والآخرين من حوله، لذا لم نجد شاعرًا لم يتضمن ديوانه فن الرثاء، أو عصر خلا أدبه من هذا الفن، وكذلك المؤلفات التاريخية

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تـ د/ عبد المجيد الترحيني، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٩٨٣م، جـ٣، صـ١٨٣.
(٢) فن الرثاء، صـ ١٣.
(٣) أسس النقد الأدبي عند العرب، د/ أحمد أحمد بدوي، ط دار نهضة مصر ١٩٩٦م، صـ ٢٣١.

والنقدية لم تخل جميعها من تدوين أو رواية حول فن الرثاء، أو متابعة مسيرته وتفسير لظواهره الفنية وتتبع لمضامينه الفكرية، فإذا تأملنا مصادر الشعر الأولى من دواوين القبائل، والشعراء، والمختارات الشعرية وغيرها؛ تأكدت لنا قيمة هذا الفن ومدى العناية به بوصفه وسيلة بث المشاعر، والتعبير عن آلام النفس فكان أنفس وأثمن ما أنتجته قرائح الشعراء.

ففي العصر الجاهلي انصب شعر الرثاء في عدة موضوعات تمثلت في رثاء الأهل، ورثاء الذات أو النفس، ورثاء العظماء أو رؤساء القبائل أو الفرسان، والأصحاب، ورثاء الديار، كما اشتمل على بذور لمضامين نضجت في غيره من العصور كرثاء المدن والممالك الزائلة... أما بالنسبة لموضوع بحثنا وهو رثاء الأعضاء فلم أقف –من خلال ما اطلعت عليه من مصادر– إلا على نموذج واحد نادر جاء في بيتين للشنفرى الأزدي في يده التي قطعت قبل مقتله يقول من الرجز:(١)

لَا تَبْعَدِي إِمَّا هَلَكْتِ شَامَهْ فَرُبَّ وَادٍ نَفَّرَتْ حَمَامَهْ

وَرُبَّ قِرْنٍ فَصَلَتْ عِظَامَهْ وَرُبَّ خَرْقٍ قَطَعَتْ قَتَامَهْ

وَرُبَّ حَيٍّ فَرَّقَتْ سَوَامَهْ

فهو يبكي يده ويعزي نفسه بمعاني الفراق الواقعة في الدنيا، بعد أن قُطِعت يَدُه والتي كانت تتزين بشامة سوداء صغيرة، فالحمام قد يتفرق بعد اجتماع، والرجل الشجاع يُقتل وتتفرق عظامه... إلخ ما ذكره ، لكنه يتمنى أن تبقى يده ولا تبتعد. وهذا اللون من الرثاء يختلف مضمونًا وفكرًا عن رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام – كما سيظهر– من حيث المضمون والرؤية وأسلوب التناول... كما أن هذا الشاهد المفرد وندرة وجوده،

(١) الطرائف الأدبية، تـ عبد العزيز الميمني، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٩م، سلسلة الذخائر برقم ١٨١، صـ٤٠. في قوله : (نفرت) التفات من الخطاب إلى الغيبة، وقوله : حمامه :الطائر المعروف، والقرن: الرجل الشجاع أو من يقاومك ، وخرق: الأرض الواسعة، وقتامه: أي الضارب إلى السواد، والسوام : الإبل الراعية.

وعدم شيوع مثله عند شعراء العصر الجاهلي لا يجعلنا نحكم بوجود هذا المضـــمون فـــي شعر هذا العصر.

وفي عصر صدر الإسلام وجدنا اتجاهات الرثاء التي شاعت في العصر الجاهلي مع اختلاف المضامين وشيوع روح الإسلام بتعاليمه والحديث عن النعيم المعد للمتقين في الآخرة، كما وجدنا مضامين جديدة، كمراثي النبي (ﷺ)، ورثاء الخلفاء الراشدين، ورثـــاء الشهداء والذي نشأ بسبب كثرة الغزوات والفتوحات الإسلامية، وهو ما تولد منه هذا اللون الجديد وهو رثاء الأعضاء التي فُقِدَت أو أصيبت في المعارك وهو ما سوف يظهـــر مـــن خلال الفصول الآتية.

الفصل الأول:

الرؤية الفكرية لشعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام:

أولا : رِثاءُ الرِّجْل:[1]

من الأعضاء التي كثر رثاؤها في نتاج شعراء عصر صدر الإسلام (الرِّجــلُ)، فهي تمثل عضوًا مهمًا للفارس يعتمد عليه في العدو والكر والفر، كما أنها العضو الفاعل في هذه المهارة، وقديما لُقب بعض الشعراء بالعدَّائين؛ لسرعتهم وخفــة فــرارهم ممــن يلاحقونهم، وكان العدو أبرز خصائص الشعراء الصعاليك لوعورة حياتهم ومنهجهم فــي الحياة المتمثل في المطاردة والإغارة والسلب، فكان الشاعر من هؤلاء دائما ما يفخر بقوة أعضائه واعتماده عليها في أحلك الظروف وأشد المواقف، والتي تكون سببا في نجاته من الموت... ويدل على ذلك قول الشاعر أبي خراش[2] في حربه مع بني نفاثة حينما أطلقوا خيولهم للحاق به ورأى ريح الموت مقدمة من قبلهم، فأطلق العنان لســاقيه اللتــين يثــق بمقدرتهما على العدو تحقيقا للنجاة، وفيها يصور مهارته فلا يستطيع أحدٌ أن ينجو نجــاءه إلَّا حمارًا وحشيًا ضامر البطن، يقول من الكامل:[3]

---

(1) رتبت هذه المحاور حسب كثرة النتاج الذي وقفت عليه .

(2) أبو خِراش الهُذَلِيّ : (تـ نحو ١٥هـ/٦٣٦م) هو خُوَيْلِد بن مُرَّة، أحَدُ بني قِرْد، من هُذَيْل بن مُدْرِكة بن إلْياس بن مُضَر، واحدُ عشرة إخْوة كلُّهم شاعرٌ داهيةٌ عدَّاءٌ، لا يُدْرَكُون عَدْوًا، مُخَضْرَمٌ نابِهٌ في رَهْطِه، مَذْكورٌ في فُصحائهم وفُحُولهم، أدْرك الإسلام فأسلم وحَسُنَ إسلامه، كان صاحبَ مَعْدًى بعيدٍ، وخَطْوٍ عظيم؛ إذِ اشْتُهِرَ بَسَبْقِه الخيلَ في غارات قومه وحروبهم، مات في زمن عمر بن الخطَّاب من نَهْش حية ، ينظر في ترجمته : الأغاني لأبي الفرج الأصفهانيّ، (م، س). وشرح أشعار الهُذَلِيِّين، للسُّكَّريّ، تحقيق عبد السّتّار فرّاج (مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥)،الشعر والشعراء، لابن قتيبة، (م، س).

(3) ديوان الهذليين: طـ الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م ، جـ٢، صـ ١٦٨، ١٦٩.

لَمَّـــا رَأَيْـــتُ بَنِـــي نُفَاثَـــةَ أَقْبَلُـــوا يُشـــلُونَ كُـــلَّ مُقَلِّـــصٍ خِنَّـــابِ[1]
فَنَشِـــيْتُ رِيْـــحَ الْمَـــوْتِ مِـــنْ تِلْقَـــائِهِم وكَرِهْـــتُ كُـــلَّ مُهَنَّـــدٍ قَضَّـــابِ[2]
وَرَفَعْـــتُ سَـــاقًا لَـــا يُخَـــافُ عِثَارُهَـــا وَطَرَحْـــتُ عَنِّـــي بِـــالْعَرَاءِ ثِيَـــابِي
أَقْبَلْـــتُ لَـــا يَشْـــتَدُّ شَـــدِّي وَاحِـــدٌ عِلْـــجٌ أَقَـــبُ مَسَـــيَّرُ الْـــأَقْرَابِ[3]

ومن ثَمَّ إذا رُزِء الشاعر الفارس من هؤلاء بفقد هذا العضو رثـاه رثـاء حـارا موجعا، رثاء من يرى أنه فقد أهم ما كان يعتمد عليه، بل أفضل ما كان يميزه عن غيره، ولعل هذا المعنى يظهر جليا في رثاء الشاعر أبي خراشة سَاقَه حينما أصيب فيها فهلكـت بسبب حية لدغتها فقال من الوافر:[4]

لَقَـدْ أَهْلَكْـتِ حَيَّـةَ بَطْـنِ أَنْـفٍ عَلَـى الْأَصْـحَابِ سَـاقًا ذَاتَ فَضْـلٍ[5]

لقد تمكنت الشاعر حسرة الفَقْد لأداة يرى أنها كانت صاحبة الفضل الأولـى فـي نجاته هو وأصحابه في كثير من المواقف؛ إذا فهو يبكي أداته وعدته التي كان يتكئ عليها في السلم والحرب.

(١) يشلون : يدْعُون ومنه أشليت الكلبة إذا دعوتها، خناب : طويل، والفرس المقلص الطويل القوائم .
(٢) نشيت : شممت ريح الموت ، والقضاب : القَطَّاع .
(٣) أقب : ضامر ، الأقراب : جمع قرب كقفل وهو الخاصرة، ومسير الأقراب أي فيه خطوط .
(٤) ديوان الهذليين ، جـ٢، صـ ١٧١.
(٥) بطن أنف : بطن من منازل هذيل زل به قوم على أبى خراش فخرج ليجيئهم بالماء فنهشته حية فمات، وقوله ساقا ذات فضل : أي أن لها فضلا على الأصحاب؛ وذلك لما وهبه الله من سرعة عدوه بها.

ويتجلى رِثاءُ الرِّجل في عصر صدر الإسلام في قصيدة الصحابي الجليل عبيدة بن الحارث بن المطلب (ﷺ)– ابن عم رسول الله (ﷺ) – [1] حين قطعت رجله يوم بدر فرثاها في قصيدة بلغت عشرة أبيات وفيها يقول من الطويل :[2]

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ ... أُرَجِّي بِهَا عَيْشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا
مَعَ الْحُورِ أَمْثَالِ التَّمَاثِيلِ أُخْلِصَتْ ... مَعَ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا لِمَنْ كَانَ عَالِيَا[3]
وَبِعْتُ بِهَا عَيْشًا تَعَرَّقْتُ صَفْوَهُ ... وَعَالَجْتُهُ حَتَّى فَقَدْتُ الْأَدَانِيَا[4]
فَأَكْرَمَنِي الرَّحْمَنُ مِنْ فَضْلِ مَنِّهِ ... بِثَوْبٍ مِنَ الْإِسْلَامِ غَطَّى الْمَسَاوِيَا[5]

إننا إزاء لون جديد من الرثاء لا يعبأ فيه الشاعر بما فقد أمام ما ربح، رثاء تظهر فيه جدة الموضوع من حيث تناول الفكرة والتعبير عن المضمون المنبثق من خلجات نفس مؤمنة، وتنطلق من خلال التصور الإسلامي للحياة والأحياء، إنه رثاء المقاتل الشجاع المؤمن المحتسب الذي يبغي جنة عرضها السماوات والأرض، رثاء مؤمن باع نفسه

---

(1) عُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ قُصَيٍّ القُرَشِيُّ المُطَّلِبِيّ، أحَد السَّابِقِيْنَ الأوَّلِيْنَ، وَهُوَ أسَنُّ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ (ﷺ) بِعَشْرِ سِنِيْنَ، هَاجَرَ هُوَ وَأخُوْهُ الطُّفَيْلُ، وَحُصَيْنٌ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الرِّجَالِ، مَلِيْحاً، كَبِيْرَ المَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُوْلِ اللهِ(ﷺ) وَهُوَ الَّذِي بَارَزَ رَأسَ المُشْرِكِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَأثْبَتَ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ، وَشَدَّ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ عَلَى عُتْبَةَ فَقَتَلاَهُ، وَاحْتَمَلاَ عُبَيْدَةَ وَبِهِ رَمَقٌ، ثُمَّ تُوُفِّيَ بِالصَّفْرَاءِ فِي العَشْرِ الأخِيْرِ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ (ﷺ) وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ)أمَّرَهُ عَلَى سِتِّيْنَ رَاكِباً مِنَ المُهَاجِرِيْنَ، وَعَقَدَ لَهُ لِوَاءً، فَكَانَ أوَّلَ لِوَاءٍ عُقِدَ فِي الإِسْلاَمِ. ينظر في ترجمته : طبقات ابن سعد: ٣ / ٣٤، نسب قريش: ٩٤٩٣، الاستيعاب: ٧ / ١١٤، أسد الغابة: ٣ / ٥٥٣، الإصابة : ٦ / ٣٦٩.

(2) السيرة النبوية لابن هشام، تـ محمد بيومي، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط الأولى ١٩٩٥م، جـ ٢، صـ٢٥٩.

(3) التماثيل: جمع تمثال، وهو الصورة التي تصنع على أحسن ما يقدر عليه، وأخلصت: أحكم صنعها وأتقن، والضمير في أخلصت يعود على الحور العين.

(4) التعرق : المزج، تقول: تعرقت الشراب إذا مزجته .

(5) المساويا : العيوب .

الطاهرة لله فرآها زهيدة رخيصة مقابل ما يجني، وهو مضمون مقتبس من قوله تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾. (١)

ولعل النظرة العجلى للأبيات تقلل من الجانب الفني للقصيدة لعدم استشعار بهاء المعنى أو ما أطلق عليه النقاد ماء الشعر، بسبب سطحية التعبير وعدم العمق الناتج عن قرب المعنى ووصف الأشياء بالتقريب لا بالتحديد، لكننا إن عاودنا النظر في القصيدة وقمنا بدراسة الظاهرة واضعين أمام أعيننا بعض الحقائق كتأثير البيئة والزمان وظروف العصر وما يشيع فيه من أفكار ورؤى معينة تملكت الشاعر، وأن هذا الشعر يأتي غالبًا ارتجالًا بسبب الموقف، وكذلك محاولة تطويع المعاني الإسلامية الجديدة للنظم ، والتي كانت تحتاج منهم إلى مران ومحاولة تطويع للغة والأسلوب ورياضة للموهبة ،حتى يبرعوا وتنضج تجاربهم... وغير ذلك؛ استطعنا أن نحكم حكمًا متأنيًا منصفًا.

فنحن أمام مضمون جديد لم يكن معروفًا من قبل في هذه البيئة الجاهلية ،يتناول فيه الشاعر معنى احتساب الأجر عند الله ، وإبراز معاني التضحية والبذل، والتضحية هذه المرة ليست لمجد القبيلة أو فخر العشيرة، وإنما لرضا الرحمن، والفوز بحياة خالدة في جنة عرضها السماوات والأرض..

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ أُرَجِّي بِهَا عَيْشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا

فالشاعر لا يبكى رِجْلَهُ بُكاء الثكلى الموتورة لفقد عزيز، أو يظهر الجزع ومرارة الفقد – كما هو معتاد في شعر الرثاء الجاهلي– وإنما يفاخر بما قدم ويُظهر روح التحمل والتصبر والجلد، بل ويفاخر بما حقق من مكاسب، فيحدثنا عن بعض نعيم الجنة التي سمع بها من القرآن الكريم والرسول الأمين(ﷺ)، فيصف الحور العين وصفًا قريبًا – وليس ساذجًا – أقرب ما يكون إلى قرب الخيال ومحدودية الفكر في المرحلة الأولى من الدعوة التي كانت تخاطب أصحاب العقول الوثنية، وتهدف إلى ترغيبهم في الدين الجديد ، ويظهر ذلك في قوله:

(١) سورة التوبة : من الآية رقم (١١١) .

مَعَ الْحُوْرِ أَمْثَالِ التَّمَاثِيْـلِ أُخْلِصَـتْ مَــعَ الْجَنَّــةِ الْعُلْيَــا لِمَــنْ كَــانَ عَالِيَــا

وإن كانت الصورة في هذا البيت قريبة بسيطة ، لكنها جديدة في هـذا المجتمـع الوثني الذي لم يكن يؤمن بالجنة ونعيمها ، وها هو ذا يتعرف على الحور العـين للوهلـة الأولى، والبيت التالي لهذا البيت يدل على نضج فكري ،وعمق في المعنى ، وتشبع بروح الدين الجديد:

وَبِعْـتُ بِهَـا عَيْشًـا تَعَرَّقْـتُ صَـفْوَهُ وَعَالَجْتُـهُ حَتَّـى فَقَـدْتُ الْأَدَانِيَـا

ويستمر الشاعر في قصيدته مظهرًا معاني الرضا والتسليم، وعدم الجزع أو الندم ، فيذكر بداية المعركة مفاخرًا بإقدامه، فقد كان أول المبارزين الملبّـين لنـداء النبـي (ﷺ)وداعي الجهاد، يقول:[1]

وَمَـا كَـانَ مَكْرُوْهًـا إِلَـيَّ قِتَـالُهُمْ غَـدَاةَ دَعَـا الْأَكْفَـاءُ مَـنْ كَـانَ دَاعِيَـا
وَلَـمْ يَبْـغِ إِذْ سَـأَلُوا النَّبِـيَ سِـوَاءَنَا ثَلَاثَتَنَـا حَتَّـى حَضَـرْنَا الْمُنَادِيَـا
لَقِيْنَـاهُمُ كَالْأُسْـدِ تَخْطَـرُ بِالْقَنَـا نُقَاتِلُ فِـي الـرَّحْمَنِ مَـنْ كَـانَ عَاصِـيَا
فَمَـا بَرِحَـتْ أَقْـدَامُنَا مِـنْ مَقَامِنَـا ثَلَاثَتِنَـا حَتَّـى أُزِيْـرُوا الْمَنَائِيَـا

يوجه الشاعر حديثه لأعدائه الذين ظنوا أنهم ألحقوا به الإيذاء ،أو أوقعوا به الضـرر لقطع ساقه، فيفجأهم بهذا الصمود والجلد في مواجهة الخطوب، فهو مُسْلِمٌ علّمته عقيدتـه كيف يستسيغ البلاء احتسابا للأجر، ويهون من المصاب إزاء الجزاء الأوفى، لـذا يشـير الشاعر في الأبيات إلي بداية المعركة حينما خرج عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة من صفوف جيش قريش ودعا إلى المبارزة – على عادة العرب في بداية معاركهم – فخرج له ثلاثة من الأنصار فرفض نزالهم، ثم نادى يا محمد أخرج لنـا

([1]) السيرة النبوية لابن هشام، صـ ٢٦٠. وقوله: ثلاثتنا يقصد نفسه وحمزة وعليا (ﷺ)، وأزيروا : مبني للمجهول من الفعل: أزار: من زار زيارة، ويريد بهم الكفار، والمنائيا : أي المنايا، وقوله: ثلاثتنا في البيت الأخير بدل من ضمير المتكلمين في (مقامنا) بدل كلّ من كلّ، حيث دلّ على الإحاطة.

أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله (ﷺ): قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فبارز عبيدة – وكان أسن القوم – عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين جرح كل منهما بها صاحبه جراحة بالغة، فكر حمزة وعليٌّ بأسيافهما على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة إلى الصحابة.[1] والقصيدة بهذا المضمون تعد رصدًا فنيًا للأحداث، وتسجيلًا لفترة خصبة من تاريخ الإسلام ووقائعه، بالإضافة إلى أنها ترجمة للمشاعر الإسلامية، مع ما تحمله من مضامين الفخر بمعان الفتوة والبطولة الإسلامية، وإظهار الحرص على الشهادة والجهاد والنضال، للدفاع عن الإسلام والمسلمين، ونصرة رسوله (ﷺ) ودعوته، وكلها مضامين إسلامية جديدة لم توجد في قصيدة الرثاء الجاهلية.

وممن رَثَا رِجْلَه في عصر صدر الإسلام حين كُسِرت ؛الصحابي الضحاك بن خليفة حينما كُسِرَتْ ومِرْفَقَه فقال من الطويل:[2]

كَادَتْ وَبَيْتِ اللهِ نَارُ مُحَمَّدٍ ... يَشِيْطُ بِهَا الضَّحَّاكُ وَابْنُ أُبَيْرِقِ

وَظَلْتُ وَقَدْ طَبَّقْتُ كِبْسَ سُوَيْلِمٍ ... أَنُوْءُ عَلَى رِجْلِي كَسِيْرًا وَمِرْفَقِي

سَلَامٌ عَلَيْكُم لَا أَعُوْدُ لِمِثْلِهَا ... أَخَافُ وَمَنْ تَشْمَلْ بِهِ النَّارُ يُحْرَقِ

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ، جـ٢، صـ١٨٣.

(2) الضحاك بن خليفة بن ثعلبة بن عديّ بن كعب بن عبد الأشهل الأنصاريّ الأشهليّ، قال أبو حاتم : شهد غزوة بني النضير، وله ذكر، وليست له رواية، وكان ممن يتهم بالنفاق ثم تاب وأصلح . ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تـ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، ط دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، جـ٣، صـ٣٨٤، برقم :٤١٨٢. وفي مناسبة الأبيات ذكر ابن إسحاق في غزوة تبوك قال: وبلغ النبي(ﷺ) أنّ ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبّطون الناس عن الغزو، فبعث إليهم طلحة في قوم من الصحابة وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله وأفلت، وقال هذه الأبيات، وابن أبيرق المذكور مسلم من إحدى قبائل الأنصار من بني أبيرق، ينظر: السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤، صـ ١٠٧، وينظر: البداية والنهاية لابن كثير، تـ د/ أحمد فتيح، ط دار الحديث،ط السادسة٢٠٠٢م جـ٥،٦ ، صـ٤.

فالأبيات وإن كانت تشير إلى حدث معين سجلته كتب السير؛ إلا أنها ترصد تجربة شعرية ذاتية يصور من خلالها شاعرٌ إسلاميٌ أحاسيسَه ومشاعرَه تجاه موقف شديد الوقع على نفسه، كسرت فيه رِجْلُه ومِرْفَقُ يده، ولولا أن الله سلمه لهلك، وهو في بكائه أعضاءه يمزج بين الاعتراف بالخطأ وإعلان التوبة والوعد بعدم العودة لمثل هذه الأمور، فالبيت يحمل مضموناً إسلاميًا جديدًا فيه الاعتراف والاستغفار والندم على الذنب، وعدم العناد أو المكابرة أو التمادي في المعصية، وهذا كله ناتج عن روح إسلامية تنبثق من تعاليم الدين الجديد، فنضحت على معاني الشعراء ومضامينهم، والتي تجلت في ألفاظهم وأساليبهم.

وممن رثا رِجْلَهُ مصورا شجاعته وفدائيته التي قَلَّ نظيرُها حكيم بن جبلة[1] وذلك حينما " كان مع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فأخذ يقاتل بشجاعة نادرة حتى قطعت رجله، فأخذها وضرب بها الذي قطعها فقتله، ولم يزل يقاتل ورجله مقطوعة، وهو يقول مرتجزا:[2]

يَا سَاقُ لَا تَرَاعِي ... إِنَّ مَعِي ذِرَاعِي ... أَحْمِي بِهَا كُرَاعِي .

وفي رواية أخرى أنه قال من الرجز:[3]

دَعَـــــاكِ خَيْـــــرُ دَاعِـــــي ... يَـــا نَفْـــسُ لَـــنْ تَرَاعِـــي

إِنَّ مَعِـــــــي ذِرَاعِـــــي ... إِنْ قُطِّعَـــــتْ كُرَاعِـــــي

---

(1) حكيم بْن جبلة بْن حصين بْن أسود ابن كعب بْن عامر بْن الحارث بْن الديل... بْن أسد بْن ربيعة بْن نزار العبدي، وقيل : حكيم بضم الحاء وهو أكثر، وقيل : ابن جبل .أدرك النَّبيّ (صلى الله عليه وسلم) وليست له رواية ولا خبرًا يدل عَلَى سماعه منه ولا رؤيته له، وكان رجلًا صالحًا له دين، مطاعًا في قومه. ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ط دار ابن حزم، ط الأولى ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م، جـ٢، صـ٥٧، حرف الحاء برقم ١٢٣٣.

(2) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧، ٨، صـ ٢٢١، وفيه أن الحادثة كانت في وقعة الجمل، وينظر: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ط المكتبة العلمية بيروت، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م، جـ٢، صـ ٣٦٩ . والكُرَاعُ من الإنسان: ما دون الرُّكبة إلى الكعب .

(3) السابق .

فالبيتان فيهما حرص على الشهادة في سبيل الله، وإظهار معاني الجلد واحتساب الأجر، والنظر إلى لطف الله، فهو إن فقد رجله فمعه ذراعه التي يستطيع أن يحمل بها السيف ليطعن العدو ويكمل مسيرة الجهاد، فلا جزع ولا خور، وكلها معان ومضامين إسلامية نتجت عن تشبع النفس بمعان الإيمان.

ومن شعراء صدر الإسلام الذين رثوا رِجْلَهُم واشتهر بهذا الرثاء حتى لُقِّبَ بناشد رِجْلِهِ الشاعر حياض بن قيس القشيري،[1] وكان ذلك في معركة اليرموك سنة١٥ه، وفيها قَتَلَ خَلْقًا كثيرًا من العلوج، وقُطِعت رِجْلُه وهو لا يشعر ،فجعل يَنْشُدُها وفي ذلك المعنى يصف الشاعر سوار بن أبي أوفى[2] وهو أحد بني أبيه مفتخرًا بفعل حياض ومبرزًا قدر ما قدم من تضحيات فيقول من الطويل :[3]

وَمِنَّا ابْنُ عَتَّابٍ وَنَاشِدُ رِجْلِهِ وَمِنَّا الَّذِي أَدَّى إِلَى الْحَيِّ حَاجِبَا

---

[1] هو حياض بن قيس بن الأعور.. بن كعب القشيري، ينظر في ترجمته : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، جـ٢، صـ١٥٩، حرف الحاء برقم ٢٠٢٣، وفي تاريخ دمشق: ذكر باسم حياش ويقال جياش بن قيس..بن عامر بن صعصعة القشيري فارس أدرك أيام النبي (ﷺ)ولم يره وشهد يوم اليرموك وأبلى فيه بلاء حسنا له ذكر، ينظر: تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكرتـ٥٧١هـ ، تـ محب الدين العمري، ط دار الفكر للطباعة والنشر، ط الأولى ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م جـ١٥، صـ٣٧٧، وذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب، تـ عبد السلام هارون، ط دار المعارف،ط الخامسة، صـ ٢٩٠ باسم جياش. وقد أثْبَتُّ حياض لشهرته بها في كتب السير والمغازي، ولعلها كانت شهرته.

[2] سوار بن أوفى بن سبرة بن سلمة بن قشير بن كعب القشيري قال المرزباني: مخضرم كان يهاجي النابغة، ينظر : الإصابة لابن حجر جـ٣، صـ٢١٩، برقم ٣٧٢٧.

[3] الإصابة في تمييز الصحابة جـ ، صـ٢١٩، وقوله : " وحاجبا " يقصد حاجب بن زرارة . وقوله : " والذي أدى " يعني ذا الرقيبة كان أسر حاجب بن زرارة يوم شعب جبلة وهو من أعظم أيام العرب فشعب جبلة هو الموضع الذي كانت فيه الواقعة المشهورة بين بني عامر وتميم وعبس وذبيان وفزارة .

فهو يفتخر بشجاعة أبناء أبيه وإقدامهم، ومنهم ناشد رِجْلَه حياض بن قيس، والذي قال مخاطبًا فرسه ، بعد أن قُطِعَت رِجْلُه في معركة اليرموك من الرجز:[1]

أَقْـــدِمْ حـــذَامُ إِنَّهـــا الْأَسَـــاوِرَه وَلَـــا تَغُرَّنَّـــكَ رِجْـــلٌ نَـــادِرَهْ

أَنَـــا الْقُشَـــيْرِيُّ أَخُـــو المُهَـــاجِرَه أَضْـــرِبُ بِالسَّـــيْفِ رُؤُوْسَ الْكَـــافِرَه

والبيتان صورة لما تنطوي عليه نفس الفارس المسلم من شجاعة وإقدام وبذل في سبيل الله، فهو لا يلتفت لفقد قدمه ،ولا يبكيها بكاء الحزين البائس؛ وإنما يفخر بمـا قـدّم، فهو من المهاجرين الذين ضربوا أروع الأمثلة في البذل والتضحية نجاة بدينهم، لذا فهـو يضرب رؤوس العدو الكافر احتسابًا لوجه الله ،وتلبية لنداء الجهاد... لقد غيرت العقيـدة الإسلامية في نفس الشاعر نمط التفكير، وبدا ذلك واضحًا في أسـلوب تناولـه لمعانيـه والتعبير عن فكرته، وتجلى ذلك نظمًا مفعمًا بالمشاعر في مضامين شعره، كما اسـتطاع الشاعر في بيتيه أن يشعرنا معنى الاستهانة بما قدم أو فَقَد، أمام ما نال من العدو، وحققـه من مكاسب لدينه وأمته.

وفي حرب القادسية عام (١٥ه) كان عشرة من إخوة بني كاهل بن أسد يقال لهم بنو حرب، وبينما يقاتلون بشجاعة أصيبت رِجْلُ أحدهم بضربة مات منها يومئذ ، فارتجز قائلا:[2]

صَـــبْرًا عِفَـــاقُ إِنَّهَـــا الْأَسَـــاوِرَه صَـــبْرًا وَلَـــا تَـــذْعُرْكَ رِجْـــلٌ نَـــادِرَه

---

[1] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، جـ٢، صـ١٥٩، وحذام اسم فرسه، وفي إحدى الروايات " خذام " ، ينظر : أسماء خيل العرب وأنسابها، لأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي، تـ د/ محمد عبد القادر أحمد، ط مكتبة النهضة المصرية، طـ الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م جـ١، صـ ٨٨ رقم ١٩٩.

[2] تاريخ الطبري، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، ط الثانية، جـ ٣، صـ ٦٤، وسمط اللآلي، لأبي عبيد البكري الأونبي، تحقيق وشرح عبد العزيز الميمني، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة٢٠٠٩م، جـ١، صـ ١٢٣.

فأخو بني كاهل قطعت رجله علي يد بعض الأعداء فرثاها محتسبا الأجـر عنـد الله، وأخذ يوصي أخاه عفاق بالصبر والثبات وعدم الذعر لما أصابه بفقد رجله، والبيـت من الرجز كأنه نشيد حماسي قصير، يستثير الشاعر من خلاله حماسة إخوته والمجاهدين معه.

ومن صور رثاء الرِّجْل في عصر صدر الإسلام قول هميم بن صعصعة[1] بعد أن أصيب في رِجْلِهِ فَعرج – وقد عرج وهو شاب – راثيا حاله من الرجز:[2]

أَعُوْذُ بِـالرَّحْمَنِ مِـنْ سُـوْءِ الْعَـرَجْ وَمِـنْ خُمَـاعٍ وَظُلَـاعٍ وَعَـرَجْ
إِنَّ الْقَنَـاةَ بِـالْفَتَى جِـدُّ سَـمَجْ وَكُنْـتُ كَـالظَّبْيِّ إِذَا الظَّبْـيُ مَعَـجْ

وهو لون من رثاء الأعضاء مغاير لما سبق فهذا اللون يمتزج بالشـكوى، وفيـه يعبر الشاعر عن تأثير عرجه، أو إصابته في قدمه على حياته الاجتماعية، فيعبر عن نفس مكلومة.

ورثاء الأعضاء أول ما ظهر بهذه الصورة ظهر مع المعارك والغزوات ،فهو من ابتكارات شعر المغازي والفتوحات، وظل على هذه الحال حتى عرفه الشعراء ،وتمرسوا معانيه ،واستساغوه في أشعارهم، فمن المضامين التي تتصل برثاء الرِّجْلِ لونٌ يصور فيه الشاعر حاله بعد أن فقد رجله أو أصيب فيه فعرج بسببها، فيحكي ذلك متحسرًا مبرزًا ما جَرّهُ عليه من جهد وويلات .

---

(1) الشاعر هميم بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن سفيان التميمي، إسلامي وفد على النبي فأسلم، ينظر في ترجمته: الطبقات الكبرى لابن سعد (جـ٧ /٣٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير: (جـ٣ /٢١)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (جـ٥ /١٤٢، ١٤٣) برقم: (٤٠٦٣).

(2) البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ، تـ عبد السلام هارون، ط دار الجيل بيروت، ط الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، صـ١٨٧، والخُماع - بالضم -العرج ، والظلاع بالضم أيضا العرج وغمز في المشية، القناة العصا والمراد : العصا التي يستعين بها العرجان ، والسَّمَج : مصدر سمِج بالكسر وهوالقبح ، مَعَجَ الظبيُ : أسرع في عدوه.

فهذا الشاعر الطائي الأعرج[١] يصور ذلك المعنى حين خطب امرأة فرفضت بسبب عرجه، وشكت ذلك إلى جارتها ، فقال من الطويل:[٢]

وَتَشْكِي إِلَى جَارَتِهَا وَتَعِيْبُنِي ... فَقَالَتْ مَعَاذَ اللهِ أَنْكِحُ ذَا الرِّجْلِ

فَكَمْ مِنْ صَحِيْحٍ لَوْ يُوَازَنُ بَيْنَنَا ... لَكُنَّا سَوَاءً أَوْ لَمَالَ بِهِ حِمْلِي

فالرثاء هنا ليس رثاءً خالصًا لأحد الأعضاء ، وهي الرِّجْل بالمفهوم السابق ،ولكنه رثاء يمتزج بشكوى الحال ،ومحاولة التعبير عن آلام نفس مكلومة نتيجة فقد هذا العضو.

ثانيا : رثاء اليَدِّ :

إن كانت رِجْلُ الشاعر الفارس تمثل عُدَّتَه التي يتكئ عليها في كَرِّه وفَرِّه؛ فإن اليد هي الوسيلة التي يحمل بها سلاحه ويقضي مهامه المختلفة، ويهاجم خصمه ليدافع عن نفسه ويبرز قدرته القتالية ليكون أهلا لأن يلقب بحامي عشيرته.

لهذا كله كلف الشعراء بالحديث عن الذراع ووصفها بالقوة وتصوير مهارتها في المبارزة والرماية بصور شتى، لدرجة بلغت بهم مدح ذلك والتغني به وإن كان لعدوهم، فهذا الشاعر أبو خُراش يصف ذراعي عدوه بالقوة في قصيدته التي يفخر فيها بنجاته من أعدائه وفراره منهم، والنجاة بنفسه رغم المكائد التي أعدوها له، يقول من الطويل:[٣]

تَرَاهُ وَقَدْ فَاتَ الرُّمَاةَ كَأَنَّهُ ... أَمَامَ الْكِلَابِ مُصْغِيَ الْخَدِّ أَصْلَمُ

بِأَجْوَدَ مِنِّي يَوْمَ كَفَّتُ عَادِيًا ... وَأَخْطَأَنِي خَلْفَ الثَّنِيَّةِ أَسْهُمُ

أُوَائِلُ بِالشَّدِّ الذَّلِيْقِ وَحَثَّنِي ... لَدَى الْمَتْنِ مَشْبُوحُ الذِّرَاعَيْنِ خَلْجَمُ[٤]

---

(١) هو عدي بن عمرو بن سويد بن زبان، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، برقم (٣٧١٣)، ومعجم الشعراء، للمرزباني، تـ د/ فاروق اسليم، ط دار صادر بيروت، ط الأولى ٢٠٠٥م، صـ ٢٥.

(٢) البرصان والعرجان، للجاحظ ، صـ ٤٥.

(٣) ديوان الهذليين، جـ٢، صـ ١٤٧.

(٤) مُصغ أي من شدة العدو، ونصب مصغيَ على الحال، والأصلم : مقطوع الأذن.والكفت : الانقباض والسرعة.أُوائل بالشد أي أطلب النجاة بالشد، والمشبوح الذراعين: العريض الذراعين، وحثني على الشد : أي رجلا يعدو خلفه، والخلجم: الطويل، والذليق الحديد،لدى المتن : يريد خلف ظهره، ينظر:شرح أشعار الهذليين، جـ٣، صـ ١٢١٩.

فهو يسرع للنجاة بنفسه من البطش ،خاصة أنّ في القوم رَجُلًا عَدَّاءً ،عريض الذراعين طويلًا يريد الفتك به. ويفخر الشاعر إن نَال من ذراع عدوه شيئا كقطع كف أو غيره، ويؤيد ذلك قول علقمة بن الأرت[1] مصورًا مشهد البطولة للمسلمين في بعض الغزوات من الطويل:[2]

وكَمْ مِنْ قَتَيْلٍ أَرْهَقَتْهُ سُيُوْقُنَا كِفَاحًا وكَفٍّ قَدْ أُطِيْحَتْ وَأَسْوَقِ

فهو يصور حالة الفتك التي أطاح فيها المسلمون بأكف وأسواق العدو من الروم في يوم فِحْل.

والفارس إن قُطِعَتْ ذراعه أو كُلِمَ فيها أعجزته، وحالت بينه وبين الفتك بخصمه أو تحقيق النصر في المعركة، وفي هذا المعنى يبكي الشاعر حماد بن عامر أخاه سالمًا مبررًا فرار سالم بن عامر بن عدي بن الديل بن بكر يوم " اللهيماء " من الوافر:[3]

وَأَفْلَتَ سَالِمٌ مِنْهَا جَرِيْضًا وَقَدْ كَلَمَ الذُّبَابَةَ وَالذِّرَاعَا[4]

وَلَوْ سَلِمَتْ لَهُ يُمْنَى يَدَيْهِ لَعَمْرُ أَبِيْكَ أَطْعَمَكَ السِّبَاعَا

(1) علقمة بن الأرت العبسي، مخضرم شهد وقعة فِحل في أول فتوح الشام وقال فيها شعرا، ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، جـ ٥، صـ ١٠٤، برقم ٣٧١٣، وتاريخ دمشق : لابن عساكرت ٥٧١هـ ، جـ٤١، صـ١٣٠.

(2) السابق نفسه . وقوله : أسْوُق : جمع ساق .

(3) يوم اللهيماء يوم من أيام هذيل وقعت فيه حرب بين عمر بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، وبني عامر بن عدي بن الديل بن بكر، وفيها مات قيس بن عامر أخو بني الديل، وفرَّ أخوه سالم ، ينظر ذكر الواقعة والأبيات في : العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تـ/ د عبد المجيد الترحيني، ط دار الكتب العلمية، جـ٦، صـ ٩٥، ٩٦.

(4) جَرِضَ بريقه جرضا غص به، وأفلت فلان جريضا أي مشرفا على الهلاك قد بلغت نفسه حلقه، ينظر: أساس البلاغة للزمخشري، تـ الأستاذ عبد الرحيم محمود، ط أولاد أورفاند القاهرة، ط الأولى ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، صـ٥٧، مادة (جرض). وذبابة السيف : حده وطرفه .

ففي الوقت الذي يفخر فيه الشاعر بشجاعة سالم الذي فَرَّ جريحًا، يرثي أعضاءه ويبكي يمناه، والتي لو سلمت له لما فَرّ حتى أرداهم حتفهم جميعا ،وقدمهم مأدبة شهية للسباع في ذلك اليوم.

لهذا وغيره إن رُزِءَ الشاعر في يده بالإصابة أو الفَقْدِ وقف معها راثيًا معبرًا عن نفاسة ما فقد وقيمة ما قدم، **ولعل قصيدة الشاعر عبد الله بن سبرة الحَرَشي**(١) في رثاء يده التي قطعت في بعض غزوات المسلمين مع الروم خير ما يمثل هذا اللون من رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام لكون قصيدته العينية جاءت مكتملة كما بلغت من النضج الفني ما جعل بعض النقاد يرفعها إلى مصاف عيون الشعر، وقد استهلها الشاعر بمطلع مؤثر يقول فيه من البسيط :(٢)

وَيْلُ أُمِّ جَارٍ غَدَاةَ الرَّوْعِ فَارَقَنِي ... أَهْوِنْ عَلَيَّ بِهِ إِذْ بَانَ فَانْقَطَعَا(٣)

يُمْنَى يَدَيَّ غَدَتْ مِنِّي مُفَارِقَةً ... لَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ " فلطاسٍ" لَهَا تَبَعَا(٤)

وَمَا ضَنِنْتُ عَلَيْهَا أَنْ أُصَاحِبَهَا ... لَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى أَنْ نَسْتَرِيْحَ مَعَا

---

(١) عبد الله بن سبرة الحرشي القيسي، والحرشي نسبة إلى جده الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن قيس عيلان، وحرش موضع باليمن، شاعر وفارس إسلامي، له شعر قليل، يمثل نموذجاً للفتوة والفروسية والصلابة من جهة، والغيرة على القيم والمبادئ الإسلامية من جهة أخرى. ينظر في ترجمته : الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ٥، صـ ٩، برقم ٦١٨٨، ومعجم الشعراء للمرزباني صـ ١٧١، حرف العين برقم ٢٦٥.

(٢) النص في الأمالي،لأبي علي للقالي، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ٢٠٠٩م، جـ١، صـ٤٧. وفي مناسبة القصيدة يقول الطبري: "... ولحق أرطبون بمصر حين غلب عمر على بيت المقدس، ولحق به من أحب ممن رفض الصلح ... ثم لحق عند صلح أهل مصر، وغلبهم بالروم في البحر، فكان يكون على صوائف الروم، والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين، فيختلف هو ورجل من قيس، فيقطع يد الفتى، وقتله القيسي". ينظر : تاريخ الطبري، جـ ٣، صـ٦١٢.

(٣) يقال: " ويْلُمِّهِ رجلا " ويراد وَيْلٌ لأُمِّهِ فحذفت لكثرته في الكلام ، ورجل ويلمه داهية أي داهية، وهي عبارة إعجاب ودهشة لا دعاء، وإن كان أصله في الدعاء على الرجل بالويل والهلاك، والروع : الفزع.

(٤) يوم فلطاس : اسم الموضع الذي وقعت فيه الحرب المسلمين والروم.

يستفتح الشاعر قصيدته بهذه النبرة الجهورية التي تعلن عن مصابه الجلل، وفي الوقت نفسه تعلن عن تماسكه ورباطة جأشه، لقد بدأ أبياته بالتعبير عن شدة الموقف وتصوير قدر الأسى لما فارقه من أعضائه، وإن هون على نفسه في شطر البيت الثاني، لقد تصدى ابن سبرة لهذا البطل الرومي الفاتك – في موقعة فلطاس – الذي عاجله بضربة قطعت يده وهنا ظهرت شجاعته المنطوية على أخلاقيات البطل المسلم الذي يكر ولا يفر، ومن ثم فما تقهقر وتصدى له متمنيا الفوز بالشهادة واللحاق بيده فهو لا يرى بأسًا في مصاحبتها بالموت.

وفي معرض رثاء ابن سبرة ليده يحاول أن يظهر المعنى الحقيقي لإقدام الفارس المسلم، وأن تضحيته كانت باختياره ولم يكن مجبرًا عليها ،فينسج حوارًا من مخيلته بين رَجُلٍ وامرأة وكأنهما يتوجهان إليه باللوم قائلان: أما كانت هناك حيلة تنجيك من مجابهة هذا العدو الذي كان سببًا في فَقْدِ يَدِكَ يقول:[1]

وَقَائِلٍ غَابَ عَنْ شَأْنِي وَقَائِلَةٍ هَلَّا اجْتَنَبْتَ عَدُوَّ اللهِ إِذْ صُرِعَا
وكَيْفَ أَرْكَبُهُ يَسْعَى بِمُنْصُلِهِ نَحْوِي وَأَعْجَزُ عَنْهُ بَعْدَ مَا وَقَعَا[2]
مَا كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنْ خُلُقِي وَلَوْ تَقَارَبَ مِنِّي الْمَوْتُ فَاكْتَنَعَا[3]

إننا إزاء صورة فريدة من صور رثاء الأعضاء – في عصر صدر الإسلام– أشبه ما تكون برثاء إنسان عزيز فارق الشاعر بالموت، فهناك المعزون الذين يشاركونه حزنه ويقدمون واجب العزاء، ويتساءلون عن سبب الوفاة، وهناك المبتلى بفقد الحبيب الصابر المحتسب الذي يعلن رضاه وتسليمه بقدر الله... ومن جانب آخر فالشاعر يحاول أن يظهر المكاسب التي حققها ويفاخر بها، لقد صرع هذا الفاتك وأرداه قتيلًا – بعد أن أصابه في

(١)الأمالي، لأبي علي للقالي، جـ١، صـ٤٧
(٢) أركبه : أتركه . بمنصله : المنصل السيف والجمع مناصل .
(٣) اكتنعا : قرب ودنا ، والكنيع المكسور اليد أو العادل عن كريق إلى غيره .

يده – فما كان له أن يتجاهله أو يفر منه وهو يراه مُقْدِمًا عليه متجهًا إليه ،مستلًا سيفه ،وما كان هذا من أخلاقه يوم الروع ولو كلفه ذلك الموت.

ثم يأخذ الشاعر في تصوير هذا الفارس بعد أن تغلب عليه وقتله فأبرز شكله الخارجي والداخلي فأنصفه على عادة الشاعر الجاهلي في تصوير قوة عدوه، وهو في هذا يمتدح في نفسه روح الشجاعة، وعدم الخوف كما يفاخر بقوته وبطولته ومهارته القتالية في التصدي لهذا العدو، الذي أرداه قتيلًا.

ثم يختم الشاعر قصيدته في رثاء يده بتصوير الحالة التي آل إليها كل منهما، وفيها يبرز ما حققه من نصر مؤزر، ورضا وتسليما بقضاء الله وقدره وفرحه، بما حققه وما ينتظره من ثواب مدخر عند الله، يقول:

فَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُونُ الرُّوْمِ قَطَّعَهَا ... فَقَدْ تَرَكْتُ بِهَا أَوْصَالَهُ قِطَعَا[1]

وَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُونُ الرُّومِ قَطَّعَهَا ... فَإِنَّ فِيْهَا بِحَمْدِ اللهِ مُنْتَفَعَا

بَنَانَتَيْنِ وَجُذْمُوْرًا أُقِيْمُ بِهَا ... صَدْرَ القَنَاةِ إِذَا مَا آنَسُوا فَزَعَا[2]

فإذا كان قائد الروم المقاتل أصاب شيئا من يده، فقد قطع ابن سبرة أوصاله ومزق جسده كاملا، ثم يحاول أن يسلي نفسه ويهون من خطبه فيلمح بلطف إلى الجانب الإيجابي أو المشرق فيرى أن الإصابة لم تكن كبيرة، حيث بقيت أصول يَدِه، فإنّ فيها (بنانتين وجذمورًا) يستطيع من خلاهما أن يقيم صدر القناة ،ويحمل السيف ليزود عن أمته، وهو ما يظهر علو همته ،وحرصه على إكمال مسيرة النضال التي بدأها من أجمل أمته، وأن حزنه لم يكن على مفارقة عضو من جسده ،بقدر ما هو حزن أو خوف من عدم القدرة على إكمال الرسالة وتلبية نداء الحق... وهو ما يظهر الروح الإسلامية التي تميز الشاعر المسلم خصوصا، والنص الشعري في عصر صدر الإسلام عموما.

---

(1) الأطربون، والأرطبون : هو رئيس الروم ومن معانيه البطريق .

(2) بَنَانَتَيْن : البَنَان : الأصابع أو أطرافها. جُذْمُوْرً : هو أصل الشيء أو أوله .

ومن نماذج رثاء اليَدّ التي وقفت عليها في عصر صدر الإسلام قول الشاعر السليك العقيلي[١] حينما قطعت يده في حروب الردة فأنشدها وأخذ يرتجز قائلا:[٢]

كَيْفَ تَرَانِي وَأَخِي عُطَارِدَا نَذُوْدُ مِنْ حَنِيْفَةَ الْمَذَاوِدَا
نَذُوْدُ مِنْهُمْ سِرْعَانًا وَارِدَا أَنْشُدُ كَفًّا ذَهَبَتْ وَسَاعِدَا
أَنْشُدُهَا وَلَا أُرَانِي وَاجِدَا إِلَّا فَتًى يَسْقِي شَرَابًا بَارِدَا

فهذا ناشد يده بعد أن فقدها في إحدى غزواته يفتخر بما صنع وضحى من أجل الدفاع عن الحنيفية السمحة ضد مدعي النبوة ودعاة الباطل، ومضمون الأبيات لا يبتعد عن مضمون شعر الغزوات الإسلامي ، من حيث إظهار روح الشجاعة، والتغني بالإقدام والبذل واحتساب الأجر.

ومن رثاء اليد ما رواه القاضي الماوردي تـ٤٥٠ه في الأحكام السلطانية من أن أحد اللصوص أمر به كي تقطع يده فرثاها قائلًا من الطويل:[٣]

يَمِيْنِي أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أُعِيْذُهَا بِعَفْوِكَ أَنْ تَلْقَى مَكَانًا يَشِيْنُهَا
يَدِي كَانَتِ الْحَسْنَاءَ لَوْ تَمَّ سِتْرُهَا وَلَا تُعْدَمُ الْحَسْنَاءُ عَيْبًا يَشِيْنُهَا
فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَكَانَتْ حَبِيْبَةً إِذَا مَا شِمَالِي فَارَقَتْهَا يَمِيْنُهَا

فهذا لون من الرثاء يندرج تحت رثاء الأعضاء لكن مضمونه يختلف عن سابقه، فهو لون يغلب عليه الاستعطاف، وبكاء اليد، وبيان محاسنها وأهميتها في حياته، والتحسر على فقدها، فهي ركيزته في حياته وعماده فيها، ومن ثم فهو مضمون يبتعد كثيرًا عن

---

(١) هو السليك العقيلي (الأقطع) ذكر ابن حجر أن له صحبة وشهد اليمامة فقطعت كفه في قتال أهل الردة ينظر في ترجمته: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر الغسقلاني، جـ٣، صـ٢١٤، برقم (٣٧٠٩)، والمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، لأبي القاسم بن بشر الآمدي، ط دار الجيل بيروت، ط الأولى ١٤٤١هـ / ١٩٩١م ، صـ ١٧٦ وورد ذكره برقم (٤٣٦) .

(٢) الأبيات كاملة في المؤتلف والمختلف للآمدي ، صـ ١٧٦، والبرصان والعرجان للجاحظ صـ٣٨٤، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ ، وعطارد المذكور في الأبيات أخو الشاعر.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ٨،٧ ، صـ١٣٠، وذكر أنه وقع في زمن معاوية .

شعر هؤلاء الشعراء الفوارس الذين فاخروا بما ضحوا ومدحوا ما قدموا وأشادوا بفعالهم، بل ورأوها رخيصة زهيدة في رضا رب العالمين والفوز بنعيم الجنة الخالد.

ثالثا : رثاء العين :

تعد حاسة البصر واحدة من أهم الحواس التي رزقنا الله بها، فالإنسان منذ ولادته وهو يتعرف على الوجود والأشياء من حوله من خلالها، فهي عماد الإنسان في حياته بواسطتها عرف معنى النور، وميز الألوان وتلذذ بالجمال الذي أوجده الخالق في الكون والحياة، فإذا فقدها استحالت حياته إلى ظلام فما استطاع أن يتحرك أو يتعرف على شيء أو يميز بين حسن وقبيح؛ لهذا وغيره نجد أن الله (ﷻ) أجزل العطاء لمن ابتلي بفقد حبيبتيه فجاء في الحديث الذي رواه أنس (ﷺ) قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : إن الله (ﷻ) قال : " إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة، يريد عينيه "،[1] وما هذا الجزاء العظيم إلا لعظم المفقود.[2]

وقد سجل شعراء صدر الإسلام أثر فَقْد العين في أشعارهم بكلمات تفيض عذوبة، ومعان تنساب صدقا مع ما تتميز به من روح إسلامية تنبثق من التصور الإسلامي للكون والحياة، فهذا الصحابي الجليل عثمان بن مظعون –رضي الله عنه– بينما يمر بجمع من قريش– وكان من السابقين للإسلام– يتعرض إليه أحد سفهاء قريش وأكابر مجرميها – كعادتهم في إيذاء المسلمين المستضعفين في بداية الدعوة– فيلطمه على وجهه لطمة فقأ بها عينه، فقال عثمان –رضى الله عنه– في ذلك من الطويل:[3]

فَإِنْ تَكُ عَيْنِي فِي رِضَا الرَّبِّ نَالَهَا ... يَدَا مُلْحِدٍ فِي الدِّيْنِ لَيْسَ بِمُهْتَدِ

فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ ... وَمَنْ يَرْضَهُ الرَّحْمَنُ يَا قَوْمِ يَسْعَدِ

فَإِنِّي وَإِنْ قُلْتُمْ غَوِيٌّ مُضَلَّلٌ ... سَفِيْهٌ عَلَى دِيْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ

أُرِيْدُ بِذَاكَ اللهَ وَالْحَقَّ دِيْنَنَا ... عَلَى رَغْمِ مَنْ يَبْغِي عَلَيْنَا وَيَعْتَدِي

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٥٣)، وفي (الأدب المفرد)، برقم (٥٣٤) .

(٢) جاء في الحديث رواه أنس قال النبي (ﷺ) " إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ..."، صحيح الترمذي برقم (٢٣٩٦) .

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني تـ٤٣٠هـ، طـ دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، جـ٤، صـ١٠٤.

تظهر الأبيات الروح الإسلامية، والجانب العقدي للمسلم المناضل كما أنها تصف لنا الحال التي كان عليها الصحابة في بداية الدعوة. ولعل البيتين الأوليين لهذه القطعة الشعرية يظهران بجلاء ما كانت عليه المعاني والمضامين الإسلامية ، تلك التي غدت ديدناً لشعراء هذه الفترة من تاريخ الشعر العربي، والتي يظهر فيها مدى التأثر بمدارسة القرآن الكريم وسنة النبي الأمين (ﷺ)، مع ما تتميز به من وضوح المعاني وسهولة الألفاظ، فروح التسليم بقضاء الله وقدره، والرضا واحتساب الأجر هي المضمون الأكثر شيوعًا، أو الظاهرة الفنية الأعم في شعر هذا الجانب من رثاء الأعضاء، مع ما تشتمل عليه من معان أخرى، تظهر فيها روح الوعيد والثأر ورد الاعتداء، هذا كله في أسلوب قوي يبرز عزة المسلم بدينه وثقته في نصر الله (ﷻ)، ويؤيد ذلك قصيدة الصحابي الجليل علي بن أبي طالب –كرّم الله وجهه– حينما غضب لما أصاب عثمان في مقلتيه فتوعد هؤلاء المعاندين بأبيات تنبض ألفاظها ومعانيها وصورها وموسيقاها بعاطفة الغضب، وفيها يهجو هؤلاء السفهاء ويوبخهم على هذه الفعلة الشنعاء ويتوعدهم يقول فيها من البسيط :[1]

أَمِنْ تَذَكُّرِ دَهْرٍ غَيْرَ مَأْمُوْنِ ... أَصْبَحْتَ مُكْتَئِبًا تَبْكِي كَمَحْزُوْنِ

أَمِنْ تَذَكُّرِ أَقْوَامٍ ذَوِي سَفَهٍ ... يَغْشَوْنَ بِالظُّلْمِ مَنْ يَدْعُو إِلَى الدِّيْنِ

لَا يَنْتَهُوْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ مَا سَلِمُوا ... وَالْغَدْرُ فِيْهِمْ سَبِيْلٌ غَيْرُ مَأْمُوْنِ

أَلَا تَرَوْنَ – أَقَلَّ اللهُ خَيْرَهُمُ – ... أَنَّا غَضِبْنَا لِعُثْمَانَ بنِ مَظْعُوْنِ

إِذْ يَلْطِمُوْنَ وَلَا يَخْشَوْنَ مُقْلَتَهُ ... طَعْنًا دَرَاكاً وَضَرْبًا غَيْرَ مَأْفُوْنِ

فَسَوْفَ يَجْزِيْهِمْ إِنْ لَمْ يَمُتْ عَجَلًا ... كَيْلًا بِكَيْلٍ جَزَاءً غَيْرَ مَغْبُوْنِ

والإمام علي – كرم الله وجهه و(ﷺ)– معروف ببلاغته وفصاحته، وإقدامه وشجاعته، فلا غرو أن تأتي أبياته سالفة الذكر محكمة النسج جيدة السبك، مع ما تميزت

(1) حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني تـ٤٣٠هـ ، ط دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، جـ ١ ، صـ ١٠٤.

به مضامينها من إظهار روح الأخوة الإسلامية كما في قوله: (أنا غضبنا) فديدن الروح الإسلامية أنها تؤازر، وتواسي، وتقتص لدين الله، مع شيوع روح العزة والشجاعة ،والجهر بصوت الحق وإعلانه في وقت استقوى فيه الشر واجتمع على طمس الحق، والصحابي الجليل علي بن أبي طالب إذ يرثي عين أخيه عثمان – رضي الله عنه– فإن رثاءه مشوب بتقريع وهجاء، وتهديد ووعيد بأخذ الثأر، وهو ما يشبه الكثير من المراثي في مثل هذا المقام، فهو وإن ظهرت في معانيه الروح الإسلامية ،إلا أن المنهج الفني الذي سلكه هو المنهج السائد في أغلب المراثي في مثل هذا المقام، وهو ما يدل على أن القصيدة الإسلامية لم تتخلص جملة من منهج القصيدة العربية القديمة.

ومن رثاء العين قول الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي حين رماه رجل –يقال له مخشي– بسهم فذهبت عينه، فقال من البسيط:[1]

غَادرَتنِي سَهْمُهُ أَعْشَى وَغَادرَهُ ... سَهْمُ ابْنِ أَحْمَرَ يَشْكُو الرَّأْسَ وَالْكَبِدَا

شُلَّتْ أَنَامِلُ مَخْشِيٍّ فَلَا جَبَرَتْ ... وَلَا اسْتَعَانَ بِضَاحِي كَفِّهِ أَبَدَا

أَهْوَى لَهَا مِشْقَصًا حَشْرًا فَشَبْرَقَهَا ... وَكُنْتُ أَدْعُو قَذَاهَا الإِثْمِدَ القَرِدَا

أَعْشُو بِعَيْنٍ وَأُخْرَى قَدْ أَضَرَّ بِهَا ... رَيْبُ الزَّمَانِ فَأَمْسَى ضَوْؤُهَا خَمِدَا[2]

---

(1) هو عمرو بن أحمر بن فَرَّاص الباهلي شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، ولم يُعرف شيء عن شعره في الجاهلية، وكل ما ورد من شعره يمثل حياته في شطرها الثاني، وفيها أسلم وحسن إسلامه، وانضم إلى جيش الفتوحات الإسلامية، وغزا في مغازي الروم وأصيب في إحدى عينيه، توفي في عهد عبد الملك بن مروان . ينظر في ترجمته : مقدمة ديوانه جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوان طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق (د – ت)، والشعر والشعراء لابن قتيبة، جـ١، صـ٣٥٦، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، جـ٢، صـ٥٧١ ،٥٨٠.وغيرذلك.

(2) قوله: أعشى أي أعور وجبرت: شفيت، ضاحي كفه : ظاهرها، المشقص: نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض، الحشر: الدقيق، شبرقها: يريد أزالها، وأصل شبرقة اللحم تقطيعه، الإثمد: الكحل، والقردا: المتلبد الذي يلزم بعضه بعضا، عشا عن الشيء ضعف بصره عنه . ينظر : ديوان عمرو بن أحمر الباهلي، صـ ٤٩.

يصور الشاعر تلك الملحمة التي فَقَدَ فيها عيْنَه بعد أن أبلى فيها بلاء حسنًا، ففي ثنايا المعركة تناول أحد أعدائه فرمى كل واحد منهما الآخر بسهمه فنال منه، فأصاب سهمُه أولا عَدُوَّه وتركه ينزف بعد أن أصاب رأسه وطعنه في كبده، بيد أن سهم عدوه أصابه هو الآخر في عينه، وما هذا إلا لأنه سهم طويل دقيق فما أن طاله إلا ومزق عينه، التي طالما رعاها وجنبها ما كان يصلحها – كالكحل وغيره – إشفاقا عليها من أن يصبها مكروه يضيرها، ويعبر عن نفس مكلومة حرقة وكمدًا بالدعاء على يدي عدوه بالشلل ،وعدم الانتفاع بكفه أبدًا، ثم يبالغ في تصوير مأساة فَقْدِ عينه فقام يرثيها فبعد أن فقد أحد عينيه وتقدمت به السن أضر بعينه الأخرى الحَدَثان فأصبح لا يرى الأشياء إلا بمشقة .

ويبدو أن فَقْدَ الشاعرِ لعينه أضر به وأثر في مسيرة حياته، ففي قصيدة أخرى يجمع بين رثاء عينه وتصوير وقع المأساة على نفسه وما جرته عليه من منغصات، منها شماتة ذوي القربى من المبغضين له والحاسدين يقول من الوافر:[1]

وَرُبَّتَ سَائِلٍ عَنِّي حَفِيٍّ ... أَعَارَتْ عَيْنُهُ أَمْ لَمْ تَعَارَا[2]

فَإِنْ يَفْرَحْ بِمَا لَاقَيْتُ قَوْمِي ... لِئَامُهُمُ فَلَمْ أُكْثِرْ حِوَارَا[3]

وَلَسْتُ بِهَيْرَعٍ خَفِقٍ حَشَاهُ ... إِذَا مَا طَيَّرَتْهُ الرِّيْحُ طَّارَا[4]

وَلَسْتُ بِعِرْنَةٍ عَرِكٍ سِلَاحِي ... عَصًا مَثْقُوْبَةٌ تَقِصُ الْجِمَارَا[5]

وَلَا يُنْسِيْنِيَ الْحَدَثَانُ عِرْضِي ... وَلَا أُلْقِيْ مِنَ الْفَرَحِ الْإِزَارَا[6]

---

(1) ديوان ابن أحمر: صـ٧٦، وما بعدها.
(2) السائل الحفي : المستقصي في السؤال، وعارت : زالت .
(3) الحوار : المراجعة .
(4) الهيرع : الضعيف الذي لا يتماسك ، خفق حشاه : مضطرب النفس، مرتعد الفرائص .
(5) العرنة : الحمق أو الجافي، العرك : الذي يتعرض للناس مسفها لهم ومقاتلا إياهم، العصا : السلاح، وعصا مثقوبة: أي فيها سير، تقص: تكسر وتدق، والجمار: جمع جمرة وهي الحجر .
(6) الحدثان: شدائد الدهر، وحوادث الدنيا، العرض : جانب الإنسان الذي يمدح ويذم به، الفرح: الخفة والطرب، وقوله: لا ألقي من الفرح الإزار: أي لا أبدي عورتي للناس إذا طربت .

فهذا لون آخر من رثاء الأعضاء، وفيه يحاول الشاعر أن يربط بين رثاء العضو وتصوير ما جره عليه من ويلات، لكن شاعرنا في أبياته يبدو جلدًا متماسكًا، فها هم الأعداء من بني قومه يظهرون الشماتة بمصابه فيتساءلون من باب التشفي: هل ذهبت عينه وصار أعورًا؟، لكنه بشيمه الطيبة لا يجيب من سُرَّ بذلك ولا يعنفه، فهو رجل يتمسك بحميد الأخلاق، وشيم الرجال فليس رجلًا أحمق الطبع جافيًا، أو غليظًا أرعن طائش اللب، وإنما هو رجل حازم ماض سلاحه السيف.

ومن رثاء العين في شعر صدر الإسلام قول بشر بن العسوس، بعد أن فقئت عينه يوم صفين من الطويل:[1]

أَلَا لَيْتَ عَيْنِي هَذِهِ مِثْلُ هَذِهِ ... وَلَمْ أَمْشِ فِي الْأَحْيَاءِ إِلَّا بِقَائِدِ
وَيَا لَيْتَ رِجْلِي ثُمَّ طُنَّتْ بِنِصْفِهَا ... وَيَا لَيْتَ كَفِّي ثُمَّ طَاحَتْ بِسَاعِدِ[2]
وَيَا لَيْتَنِي لَمْ أَبْقَ بَعْدُ مُطَرِّفٍ ... وَسَعْدٍ وَبَعْدُ الْمُسْتَنِيْرِ بْنِ خَالِدِ
فَوَارِسَ لَمْ تَغْذُ الْحَوَاضِنُ مِثْلَهُمْ ... إِذَا الْحَرْبُ أَبْدَتْ عَنْ خَدامِ الْخَرَائِدِ[3]

فهو يتمنى أن يلحق عينه، وأن تقلع رجله وكفه وساعده ليزداد قربا من الشهادة، والأبيات تمثل صورة صادقة لما تنطوي عليها نفس الفارس المناضل ،الذي يرى أن يقدم نفسه زهيدة فوزًا بالشهادة لمرضاة ربه ، كما أنه يريد أن يلحق بإخوانه الذين سبقوه في الشهادة (مطرف، وسعد، والمستنير بن خالد) وهم جميعا من أبناء جلدته، كما أنهم خير من أنجبت الأمهات، وأشجع الفرسان نزالًا إذا الحرب أبدت نواجزها.

---

(١) بشر بن العسوس وقيل العوس الطائي، كان من رجال طئ وفرسانها، وكان ممن حارب في جيش عليّ (رضي الله عنه) يوم صفين، ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، تـ : أبو الفداء عبد الله القاضي، الناشر: دار الكتب العلمية،ط ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م،٢/٦٩، وتاريخ الطبري جـ ٥ ، صـ ٣١، ٣٢. وشرح نهج البلاغة لابن حديد جـ ٥ ، صـ٢٢٤.

(٢) طُنَّتْ : أي قلعت وسقطت .

(٣) الحواضن: الأمهات. الخدام: السيقان، واحده خدمة.

رابعا : رثاء الأمعاء :

يعد رثاء الأمعاء أو الأحشاء من أطرف ألوان رثاء الأعضاء وأغربها؛ وذلك لاستحالة وجود الحياة بعد إصابتها أو فَقْدها؛ إلا أن يكون الراثي شاعرًا آخر، ومن ثم لم تصل إلينا إلا أبيات يتيمة لتثبت هذا النوع من رثاء الأعضاء، فالشاعر من هؤلاء الفرسان كان إذا طعن في بطنه فخرجت أمعاؤه ارتجل بعض الأبيات وهو يعالج السكرات، **ومن هؤلاءِ الشاعر علباء بن جحش العجلي في إحدى غزواته**[1] خرج رجل من أهل الفرس ينادي مَنْ يُبَارز، فبرز له علباءُ فنفحه علباء ضربة فأسحره – أصابه في سحره عند نحره – ونفحه الآخر فأمعاه – أصابه في بطنه – وخَرَّا سَوِيًّا، فأمَّا الفارس فمات من ساعته، وأما علباء فانتثرت أمعاؤه فلم يستطع القيام فعالج إدخالها ، فلم يتأت له حتى مَرَّ به رجل من المسلمين فقال له : يا هذا أعني على بطني فأدخله له، فأخذ بصفاقه ثم زحف نحو صف فارس ما يلتفت إلى المسلمين ، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعاً من مصرعه إلى صف فارس وقال من الرجز:[2]

أَرْجُو بِهَا مِنْ رَبِّنَا ثَوَابَا قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ أُحْسِنُ الضِّرَابَا

والبيت في مجمله ينم عن معاني الرضا والتسليم وطلب الرغبة في الشهادة في سبيل الله، وفي الوقت نفسه يصور الإشادة بمعاني البطولة ،وخصال الفارس الشجاع ،خاصة صفتا الإقدام والفتك بالخصم. والبيت وإن كان يتيمًا بسبب المقام الذي قيل فيه ،بيد أن جودته الفنية تكمن في تقديم مضمون جديد لم يقف عليه أحد من الشعراء المتقدمين في معرض الرثاء؛ وإن كان لا ينفي تناولهم لهذا المعنى في غير الرثاء ، **فقد**

(١) كان ذلك في معركة القادسية .
(٢) تاريخ الطبري، جـ ٣، صـ ٥٤.

شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام الرؤية الفكرية، والتشكيل الجمالي

ذكر بعض الشعراء مثل هذا مما فعلوه بالعدو، فهذا الشاعر أبو الضب[1] يتناوله في معرض الفخر بالبطولة وسرعة القضاء على الخصم بعد إصابته في أحشائه وتقطيع أوصاله يقول من الكامل:[2]

فَتَرَكْتُ مَسْعُوْدًا عَلَى أَحْشَائِهِ حَرَّى يُعَانِدُهَا نَجِيْعٌ أَسْوَدُ[3]

فهو يفخر بما ناله من عدوه بعد أن فاجأه بطعنةٍ تسبّبت في إخراج أمعائه وتمزيقها ،جعلت دم جوفه يسيل جانبا كالقيح الأسود .

ويدخل في هذا اللون من رثاء الأمعاء ،رثاء الشهداء الذين أصيبوا في أمعائهم ، ومن ذلك رثاء الصحابي الجليل كعب بن مالك (ﷺ) لأسد الله حمزة بن عبد المطلب بن هاشم (ﷺ) بعد أن استشهد في غزوة أحد بسبب طعنة وجهها إليه وحشي – غلام جبير بن مطعم – بحربته فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه فاستشهد على إثرها،[4] فقال كعب بن مالك يبكي حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد من المسلمين – رضى الله عنهم أجمعين – من المتقارب:[5]

---

(1) أبو ضب اللحياني الهذلي، شاعر وفارس من فرسان بني لحيان وفُتَّاكِهم، وكان لا يُقْتَلَ قتيل من هذيل إلاّ قتل قاتله.

(2) شرح أشعار الهذليين للسكري، جـ ٣، صـ٧٠٤. والبيت من قصيدة له قالها في يوم الحُلَيْتِ حين خرج الرَّكَّابُ ابن أخت له إلى حيٍ من جُهينه يطلبُ ثأر رجلٍ من هذيل من بني سهم بن معاوية.

(3) حرَّى : طعنة شديدة على صاحبها، و نجِيْعٌ : دم طري . شرح ديوان الهذليين للسكري، جـ٣، صـ ٧٠٤.

(4) يراجع في أحداث غزوة أحد : السيرة النبوية لابن هشام ، جـ٢، صـ٢١.

(5) السابق، صـ ٧١.

فَكُلُّهُـــمُ مَـــاتَ حُـــرَّ البَلَـــاءِ عَلَـــى مِلَّـــةِ اللهِ لَـــمْ يَحْـــرَجِ[1]
كَحَمْـــزَةَ لَمَّـــا وَفَـــى صَـــادِقًا بِـــذِي هَبَّـــةِ صَـــارِمٍ سَـــلْجَجِ[2]
فَلَاقَـــاهُ عَبْـــدُ بَنِـــي نَوْفَـــلٍ يُبَرْبِـــرُ كَالْجَمَـــلِ الْـــأَدْعَجِ[3]
فَـــأَوْجَرَهُ حَرْبَـــةً كَالشِّـــهَابِ تَلْهَّـــبُ فِـــي اللَّهَـــبِ الْمُـــوْهَجِ[4]

نلمح في الأبيات محاولة تصوير الهيئة التي مات عليها أسد الله حمـزة، وفيهـا إشارة إلى رثاء أحشائه ويظهر ذلك في قوله : " فَأَوْجَرَهُ حَرْبَةً كَالشِّهَابِ ..." وفيها يبكي الشاعر الشهيد الذي قاتل بروح المؤمن المقبل حتى وَفَى صادقا أفضل ما يلقـاه المـؤمن الصادق وهو الشهادة في سبيل الله، وفي الوقت الذي يصور فيـه الشـاعر فتـك القاتـل وجاهزية عتاده يشير إلى ما كان عليه حمزة من قوة ومنعة فما كان ليستشهد في المعركة إلا على الصورة البطولية، فنحن أمام جانب درامي يحاول فيه الشاعر أن يبرز الجانـب الملحمي أو البطولي لعناصره مجتمعة.

(١) حر البلاء: خالص الاختبار، لم يحرج : لم يأثم .
(٢) بذي هبة : أراد به سيفا، وهبة السيف: وقوعه بالعظم . والصارم القاطع. وسلجج: مرهف حاد قاطع .
(٣) أراد بعبد بني عبد نوفل وحشيا غلام جبير بن مطعم، ويبربر: يصيح أو يتكلم بما لا يفهم، والجمل الأدعج: الجمل الأسود .
(٤) أوجره : طعنه ، والشهاب: القطعة من النار، والموهج: المتقد .

الفصل الثاني

التشكيل الجمالي لشعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام.

بعد أن ذكرنا الرؤية الموضوعية لمضامين شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام، نقف في هذا الفصل مع التشكيلات الجمالية لهذا اللون من الشعر، أو أبرز الظواهر الفنية التي تميز بها، والتي اكتسبها نتيجة لروح التطور والتجديد التي طرأت على فن الشعر مع مقدم الإسلام وشيوع روحه وتعاليمه في نفوس الشعراء، وكثرة أحداثه التي حركت وجدانهم، وسوف نحاول إبراز أهم التشكيلات الجمالية لشعر رثاء الأعضاء من خلال المباحث التالية:

أولا : البناء الفني لشعر رثاء الأعضاء في صدر الإسلام:

أ : الوحدة العضوية :

تتكون القصيدة الشعرية من مجموعة عناصر وأدوات تتكامل وتتآزر مجتمعة ليكتمل بُنْيَانُها، فتخرج للمتلقي متناسقة الأجزاء متجانسة المعاني. وحتى يستطيع الناقد الموضوعي أن يعطى حكما صحيحا على القصيدة من خلال عالمها الشعري، ويتمكن من إبراز قيمها الجمالية، والفنية، والشعورية، لابد أن يتناول وحداتها المفردة، وعناصرها المختلفة التي تكلم عنها النقاد بالدرس والتحليل؛ كالوحدة العضوية، وحسن المطلع، والتخلص، والخاتمة، وهي الأجزاء التي يتكون منها البناء المعماري – إن جاز التعبير– للقصيدة، وقديما امتدح ابن طباطبا (تـ ٣٢٢ه) هذا التناسق المنبثق من انتظام عناصر القصيد وتكامله فقال: " وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع أخره على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها... بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجًا وحسنًا، وفصاحة وجزالة ألفاظ، ودقة معان وصواب تأليف"،[1] فهذه الرؤية – المبكرة – لنقادنا القدامى في تكامل القصيد وتناسق أجزائها وانسجام معانيها وتناغم أصواتها هي ما

---

(1) عيار الشعر،لابن طباطبا العلوي، تـ عباس عبد الستار، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى١٩٨٢م،صـ ١٣١.

أطلق عليه النقد الحديث الوحدة العضوية، والتي اشترطوا لتحققها في القصيد "وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم شيئا فشيئا حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر"(١).

وبعد تأمل النماذج الشعرية التي وقفت عليها لشعر رثاء الأعضاء، تبين أن أغلب هذه النماذج جاءت في صورة مقطوعات شعرية، وربما أبياتا يتيمة، وما ذلك إلا لأن هذا اللون من الشعر هو شعر اللمحة السريعة أو التعبير بالخاطرة عن الموقف... وفي الوقت نفسه لم يخلُ هذا اللون من بعض القصائد التي وصلت إلينا مكتملة البناء والنسج الفني، وهي التي أقف معها بشيء من التحليل في هذا المبحث، والاستشهاد هنا سوف يكون بعينية عبد الله بن سبرة الحرشي في رثاء يده، وعدتها أربعة عشر بيتا، وقد سبق ذكر أغلب أبياتها في دراسة مضامين شعر رثاء الأعضاء، لكن لا ضير من ذكرها ثانية ما دام أسلوب التناول يختلف حسب مواضع الدراسة.

وسوف أذكر هنا القصيدة كاملة ثم نحاول أن نطبق عليها الوحدة العضوية من خلال تحليل عناصرها الرئيسة انطلاقا من مفهوم "وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهي إلى خاتمة..."(٢) مع مراعاة الجو النفسي الذي يسود أبيات القصيدة مجتمعة. يقول عبد الله بن سبرة الحرشي من البسيط:(٣)

(١) النقد الأدبي الحديث، د /محمد غنيمي هلال، ط دار نهضة مصر(القاهرة)، ط الثالثة ١٩٦٤م، صـ٣٧٠.
(٢) النقد الأدبي الحديث، د /محمد غنيمي هلال، (م، س)، صـ٣٧٠.
(٣) الأمالي،لأبي علي للقالي، (م، س)، جـ ١، صـ٤٧.

وَيْـــلُ أُمِّ جَـــارٍ غَـــدَاةَ الـــرَّوْعِ فَـــارَقَنِي ... أَهْـــوِنْ عَلَـــيَّ بِـــهِ إِذْ بَـــانَ فَانْقَطَعَـــا
يُمْنَـــى يَـــدَيَّ غَـــدَتْ مِنِّـــي مُفَارِقَـــةً ... لَـــمْ أَسْـــتَطِعْ يَـــوْمَ " فلطـــاسٍ" لَهَـــا تَبَعَـــا
وَمَـــا ضَـــنِنْتُ عَلَيْهَـــا أَنْ أُصَـــاحِبَهَا ... لَقَـــدْ حَرَصْـــتُ عَلَـــى أَنْ نَسْـــتَرِيْحَ مَعَـــا
وَقَائِـــلٍ غَـــابَ عَـــنْ شَـــأْنِي وَقَائِلَـــةٍ ... هَلَّـــا اجْتَنَبْـــتَ عَـــدُوَّ اللهِ إِذْ صُـــرِعَا
وَكَيْـــفَ أَرْكَبُـــهُ يَسْـــعَى بِمُنْصُـــلِهِ ... نَحْـــوِي وَأَعْجَـــزُ عَنْـــهُ بَعْـــدَ مَـــا وَقَعَـــا
مَـــا كَـــانَ ذَلِـــكَ يَـــوْمَ الـــرَّوْعِ مِـــنْ خُلُقِـــي ... وَلَـــوْ تَقَـــارَبَ مِنِّـــي الْمَـــوْتُ فَاكْتَنَعَـــا
وَيْـــلُ امِّـــهِ فَارِسًـــا أَجْلَـــتْ عَشِـــيْرَتُه ... حَـــامِي، وَقَـــدْ ضَـــيَّعُوا الْأَحْسَـــابَ فَارْتَجَعَـــا
يَمْشِـــي إِلَـــى مُسْـــتَمِيْتٍ مِثْلِـــهِ بَطَـــلٍ ... حَتَّـــى إِذَا أَمْكَنَـــا سَـــيْفَيْهِمَا امْتَصَـــعَا
كُـــلٌّ يَنُـــوْءُ بِمَاضِـــي الْحَـــدِّ ذِي شُـــطَبٍ ... جَلَّـــى الصَّـــيَاقِلُ عَـــنْ ذَرِّيِّـــه الطَّبَعَـــا
حَاسَـــيْتُه المَـــوْتَ حَتَّـــى اسْـــتَفَّ آخِـــرَهُ ... فَمَـــا اسْـــتَكَانَ لِمَـــا لَـــاقَى وَلَـــا جَزِعَـــا
كَـــأَنَّ لِمَتَـــهُ هُـــدَّابُ مُخْمَلَـــةٍ ... أَحَـــمُّ أَزْرَقُ لَـــمْ يُشْـــمِطْ وَقَـــدْ صَـــلِعَا
فَـــإِنْ يَكُـــنْ أَطْرَبُـــونُ الـــرُّوْمِ قَطَّعَهَـــا ... فَقَـــدْ تَرَكْـــتُ بِهَـــا أَوْصَـــالَهُ قِطَعَـــا
وَإِنْ يَكُـــنْ أَطْرَبُـــونُ الـــرُّومِ قَطَّعَهَـــا ... فَـــإِنَّ فِيْهَـــا بِحَمْـــدِ اللهِ مُنْتَفَعَـــا
بَنَـــانَتَيْنِ وَجُـــذْمُورًا أُقِـــيْمُ بِهَـــا ... صَـــدْرَ القَنَـــاةِ إِذَا مَـــا آنَسُـــوا فَزَعَـــا

فمن خلال تأمل أبيات القصيدة كاملة تظهر الوحدة العضوية بمفهومها الفني، والتي تمثلت في وحدة الموضوع والفكرة التي يعالجها الشاعر وهي رثاء اليد، كما أن هناك خيطًا شعوريًا واحدًا يربط أبيات القصيدة من أول بيت إلى أخر بيت ،حيث تضمنت خمسة أفكار رئيسة جاءت في تسلسل منطقي وهي :

أ : تصوير وتجسيد المأساة (قطع اليد)، ومحاولة إظهار التماسك والتجلد، ففي الوقت الذي يظهر فيه شجاعته وتضحيته يصف ارتباطه بيده لدرجة جعلته يتمنى أن يتبعها في مفارقة الحياة للفوز بالشهادة في سبيل الله.

ب : حوار درامي يصطنعه الشاعر من مخيلته يدور بين قائل وقائلة والشاعر، وفيه يعاتبان الشاعر على جرأته في مواجهة هذا العدو الفاتك بهذه الصورة التي لم يتحلَّ فيها

بالحذر وأخذ الحيطة، فيرد الشاعر عليهما بثبات مظهرا اعتزاز المقاتل بنفسه وتقديره لما قدم من تضحيات وعدم ندمه، فما كان هناك من بد من مواجهة هـذا الفاتـك "أرطبـون الروم"، والذي قتله بعد أن قطعت يده.

ج : وصفٌ وعرضٌ مُفَصَّلٌ لقسمات هذا العدو الفاتك، والذي واجهه الشـاعر بشـجاعة منقطعة النظير، حيث صوره حامى حمى قومه، شاك السلاح، ماض في عزيمته يمشـي إليه مستميتًا – حريصًا – على قتله، الأمر الذي دعا الشاعر أن يكون جلدًا في مواجهته.

د : تصوير لحظات النهاية لهذا العدو بعد أن سقاه الموت وجرعه طعناتـه، وقـد كـان مراوغًا يحاول أن يدفع عن نفسه القتل بأية حيلة، وهو ما جعل الشاعر يصف ملامح هذا العدو وهيئته في تلك اللحظة فله شَعْرٌ متهدل كأنه خيوط جميلة ، منسـوجة حـول رأس أصلع، وهي صورة توحي بالرهبة...

ه : ختام الأبيات أو نهاية الملحمة وفيها يصور الشاعر ما حل بكل منهما، فأطربون الروم قطع يد الشاعر، وصاحبنا قطَّع أوصاله قطعا، وفيها يحاول أن يخفف من وقع المصيبة ، فالعدو لم يتمكن من قطع كفه كاملة، فقد بقي أصل اليد وبنانتين ، وهو ما يقوى به علـى حمل السيف واستكمال مسيرة الجهاد في سبيل الله.

وبهذا يتبين أن أبيات القصيدة انتظمت في سلك واحد، وانبثقـت أفكارهـا مـن مضمون واحد، لتعالج غرضًا رئيسًا ، وهو رثاء يده التي فقدها في المعركة، فالقـارئ لا يستشعر أي نتوء يعكر صفو المعنى، أو استطراد يحيل بينه وبين متابعتها ،حيث التسلسل والتدرج المنطقي، فما من بيت نستشعر فيه شيئًا من التنافر أو عدم التلاؤم، أو أتى جافيًـا في موضعه يخاصم جاره أو يشاتم أخاه، وهذا كله يؤكد ما توافرت عليه القصـيدة مـن وحدة المشاعر، وترتيب الأفكار، وتسلسل الأحداث حتى جعلتنـا نقتـرب مـن صـورة الملحمة، التي تتحقق فيها الوحدة العضوية بمعناها الدقيق.

وعلى نسق هذه القصيدة من قصائد شعر رثاء الأعضاء التي توافرت فيها الوحدة العضوية، جاءت القصيدة الأخرى للصحابي الجليل عبيدة بن الحـارث (ﷺ) فـي رثـاء رِجْلِه والتي بلغت عشرة أبيات، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه من أن هذا اللون مـن شـعر

رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام اتسم بالوحدة الفنية أو العضوية، ولعل سبب ذلك يرجع إلى الحالة النفسية والعاطفة المتقدة التي اكتنفت الشاعر وتملكت من نفسه، فلم يكن للشاعر وهو يصور هذه المأساة – فَقْد أحد أعضائه – أن يقف على طلل في مطلع قصيدته، أو يتغزل في مليحة، أو يخرج من غرض لآخر على غرار ما رأينا في القصيدة الجاهلية من تعدد الأغراض، وتنوع الأفكار داخل القصيدة الواحدة.

ثانيا : أجزاء وعناصر القصيدة في شعر رثاء الأعضاء :

أ : المطلع : يعد المطلع من أهم عناصر القصيدة لكونه أول ما يقابل به المبدع المتلقي، وأول ما يقرع السمع وبالتالي فهو أول ما يُحكم عليه كما أنه أول ما تقاس به المقدرة الفنية للشاعر، لذا عني الشعراء دائما بتجويد مطالع قصائدهم، كما عني النقاد بالحديث عن المطلع وبيان أثره ومحاولة وضع ما يمكن أن نطلق عليه المقاييس التي يحكم على المطلع الحسن من خلالها فهذا حازم القرطاجني الناقد الأندلسي (تـ ٦٨٤هـ)، يقول: "ويجب أن تكون المبادئ جزلة، حسنة المسموع والمفهوم، دالة على غرض الكلام، وجيزة تامة، وكثيرا ما يستخدمون فيها النداء والمخاطبة والاستفهام، ويذهبون بها مذاهب من تعجب أو تهويل أو تقرير..."،[1] فهذه بعض الضوابط أو الأطر التي وضعها نُقَّادنا القدامى وأوصوا الشعراء باحتذائها والنسج على منوالها في مطالع قصائدهم كي تأتي جيدة محكمة يظهر عليها أثر التأنق والإبداع، ومن ثم تحدث أثرها فتأسر أذن وقلب المتلقي من أول وهلة.

ومن خلال تأمل مطالع القصيدتين اللتين وقفت عليهما كاملتين في شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام، أستطيع أن أحكم عليهما بالجودة والبراعة، ومرجع ذلك أنهما استفتحا بما ينبئ عن الموضوع والغرض الذي أنشدت من أجله القصيدة فكأن المطلع يشي بمضمون القصيدة من أول وهلة، وهو ما يأخذ بلب المتلقي ويدعوه لتتبع المعاني وترقب تسلسل الأفكار، فكأن الشاعر يقوم بمحاولة إغراء المتلقي للتمكن منه

(1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء :لأبي الحسن حازم القرطاجني، تـ محمد بن الحبيب الخوجة، ط دار الكتب الشرقية(د.ت)، صـ٣٠٥.

وتملك نفسه ومشاعره، ففي قصيدة عبيدة بن الحارث في رثاء رجله يستهلها بوعيد قوي جزل لكفار قريش يظهر من خلاله عزة المسلم وعدم استكانته لما أصابه، كما أنه يذم جبنهم ويشيد بالنصر الذي حققه المسلمون في غزوة بدر، وما أوقعوه في صفوفهم من قتل أكابر مجرميهم يقول من الطويل:

سَتَبْلُغُ عَنَّا أَهْلَ مَكَّةَ وَقْعَةٌ يَهُبُّ لَهَا مَنْ كَانَ عَنْ ذَاكَ نَائِيَا
بِعُتْبَةَ إِذْ وَلَّى وَشَيْبَةَ بَعْدَهُ وَمَا كَانَ فِيْهَا بِكْرُ عُتْبَةَ رَاضِيَا

نلحظ أن الشاعر دخل في موضوعه مباشرة، وأنبأ عن الفكرة في بيتين وجيزين ضمنهما معاني التهويل والتهديد مما يلفت الانتباه ويحرك الأحاسيس، فسيبلغ أهل مكة نبأ ما حدث بغزوة بدر من أحداث جسام لاقى فيها الكثير من أهل قريش مصرعه، وهو ما سوف يفزع له البعيد ويستيقظ من أجله النائم، لاسيما وقد قتل من أشرافهم من بيت واحد (عتبة وابنه وأخو شيبة) وهو ما يؤرقهم ويبكيهم.

وعلى هذا النمط أتى مطلع القصيدة الأخرى للشاعر عبد الله بن سبرة الحرشي في رثاء يَدِهِ، وقد استهلّها بقوله من البسيط :

وَيْلُ أُمِّ جَارٍ غَدَاةَ الرَّوْعِ فَارَقَنِي أَهْوِنْ عَلَيَّ بِهِ إِذْ بَانَ فَانْقَطَعَا

فهذا المطلع من المطالع المؤثرة والتي وظف فيه الشاعر أسلوب التعجب السماعي[1] بما يتضمنه من معاني الدهشة والتنبه للأمر الجلل، وما يشير من خلاله إلى شدة الخطب واستعظامه... وغير ذلك من معان، فكأني بالشاعر يفاجئ المتلقي بهذا المطلع الذي يثير فيه الدهشة ليأسر لبه ويأخذ بمجامع نفسه، فينتبه لما يستمع إليه من معان، وما يترجم عنه من مشاعر.

(١) قول العرب: " وَيْلُمِّه رجلا ..." عبارة إعجاب لا دعاء وإن كان أصلها : في الدعاء على الرجل بالويل أي الهلاك"، فرجل وَيْلُمِّه: داهية أي داهية. ينظر شرح الشيخ عبد السلام هارون لأحد الأبيات التي تضمنت هذا الأسلوب في كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ هامش صـ ٢٢٢.

وفي تعبير الشاعر عن يده التي جاورته وصَاحَبَتْه منذ ولادته بالجار العزيز أو الصاحب الخل الوفي الذي يحزن لمفارقته بقوله: (ويل أم جار) – إن كان هذا هومقصده – صورة جديدة كل الجِدَّة، بل هي من ابتكارات الشاعر، والأسلوب وإن كان قائما على التصوير بالاستعارة التصريحية إلا أنه تميز بابتكاره في موضعه في مطلع القصيدة، فليس من الأساليب التي أطلق عليها النقاد الأسلوب الصيغي وهو عبارة عن الاستعمال المتكرر من قبل جميع الشعراء التابعين لمدرسةٍ مَا عندما يعبرون عن فكرة معينة لعبارات (صيغ) مشتركة تتناسب كل منها مع سياق معين...[1] وبهذا يكون مطلع القصيدة اتسم بما أطلق عليها نقادنا القدامى براعة الاستهلال وفيه يأتي الشاعر بأفضل ابتداء صنعه شاعر، وبهذا يكون الشاعر استطاع أن يتحرر من قيود التقليد للأساليب المتعارف عليها في المطالع المعتادة، بل وجاوزها ليبتكر بنفسه مطلعا جديدا ينبثق من خلجات نفسه يلائم موضوعه ويعبر عن فكرته.

وكذلك ما فعله الشاعر في الشطر الثاني لمطلعه، فقد استطاع أن يستثير نفس سامعيه باستخدام أسلوب التفضيل في قوله: **(أَهْوِنْ عَلَيَّ بِهِ...)**، والذي جاء بمعنى الوصف أي وما كان هينا عَلَيَّ مفارقة هذا الجار الذي بعد عني وفارقني حينما انقطع وانفصل عن جسدي، والمطلع يحتاج إلى مزيد تأمل وتحليل ففيه من عمق المعنى وخفي الأسرار ما يدلل على تمكن الشاعر من أدواته وانطلاق أساليبه من رصين اللغة وجميل أساليبها.

ومهما يكن من أمر فإن مطالع القصائد التي وقفت عليها في شعر رثاء الأعضاء اتسمت ببراعة الاستهلال، كما اتفقت لها صفات القوة والجودة مع الدقة والإيجاز في التعبير، وتنوع الأساليب، ومن ثم فهي من المطالع الآسرة للنفس، المثيرة للمشاعر، مع ما تميزت به من التجديد والبعد عن التقليد.

([1]) ينظر: الأسلوب الصيغي في الشعر العربي القديم، برونو باولي .

٢: حسن التخلص :

الحديث عن مطلع القصيدة يأخذ بأيدينا للوقوف مع حسن التخلص بوصفه العنصر الذي يليه مباشرة عند تحليلنا لعناصر بناء القصيدة، ومن المعلوم أن لحسن التخلص أثره الكبير ودوره المهم في بناء القصيدة بناء فنيا محكم النسج، يتمثل في انتقال الشاعر من معنى إلى آخر في لطف وتسلسل منطقي يستسيغه الذوق، قال ابن رشيق القيرواني تـ (٤٦٣هـ) في توضيح ضابطه : هو" أن يخرج الشاعر من نسيب أو غيره بلطف تحيل، ثم يتمادى الشاعر فيما خرج له"[١].

وبالنظر في شعر رثاء الأعضاء بعد تحليل مطالع قصائده تبين أن الشعراء لم يحتاجوا لهذا الجانب من عناصر بناء القصيدة، ومرجع ذلك أنهم كانوا يستهلون قصائدهم بالدخول في الموضوع مباشرة، فلم يفتتحوا قصائدهم بغزل أو وقوف على طلل أو وصف رحلة... وغير ذلك، مما اعتاده شعراء العصر الجاهلي وكان يلزمهم للجوء إلى اصطناع بيت أو معنى ينتقلون به من معنى لآخر، وكذلك غلب على شعر رثاء الأعضاء كثرة المقطوعات الأمر الذي لا يستلزم حسن التخلص.

٣ : ختام القصيدة :

يعد ختام القصيدة آخر ما يطرق السمع من لفظ وأسلوب، وآخر ما يعلق في النفس من معنى، لذا كانت العناية به لا تقل أهمية عن المطلع والعمل على تجويده، ودعا أبو هلال العسكري لانتباه للأمرين معا – المطلع والختام – والعناية بهما فقال: "والابتداء أول ما يقع في السمع في كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس، فينبغي أن يكونا جميعا مؤنقين".[٢]

وكما عنى شعراء رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام بتجويد مطالعهم والتفنن فيها عنوا بتحسين الخواتيم فجاءت ملائمة لمضمون القصيدة، مجملة أو مكملة لمعناها، فلم تأت مبتورة المعنى، أو منفصلة عن الفكرة التي عالجها الشاعر في قصيدته،

(١) العمدة، جـ١، صـ ٢٣٤ بتصرف يسير .
(٢) الصناعتين، صـ ٤٥٥ .

بل جاءت متصلة بالموضوع متممة له مشعرة بالختام، فأشعرت المتلقي بنهاية القصيدة بحيث لا يترقب شيئا بعدها.

ومن ذلك قول عبيدة بن الحارث بن المطلب في ختام قصيدته التي رثا فيها رجله من الطويل:(١)

وَمَا كَانَ مَكْرُوهًا إِلَيَّ قِتَالُهُمْ غَدَاةَ دَعَا الْأَكْفَاءُ مَنْ كَانَ دَاعِيَا
وَلَمْ يَبْغِ إِذْ سَأَلُوا النَّبِيَ سِوَاءَنَا ثَلَاثَتَنَا حَتَّى حَضَرْنَا الْمُنَادِيَا
لَقِيْنَاهُمْ كَالْأُسْدِ تَخْطُرُ بِالْقَنَا نُقَاتِلُ فِي الرَّحْمَنِ مَنْ كَانَ عَاصِيَا
فَمَا بَرِحَتْ أَقْدَامُنَا مِنْ مَقَامِنَا ثَلَاثَتِنَا حَتَّى أُزِيْرُوا الْمَنَائِيَا

ففي تسلسل طبيعي للأحداث -بعد أن رثا الشاعر رجله وأظهر معاني التسليم واحتساب الأجر عند الله- يصور الشاعر ما حدث من مواجهة قوية بينه وبين كفار قريش حينما خرج ثلاثة منهم وطلبوا أكفاءهم من المسلمين المهاجرين؛ فخرجوا إليه وما تركوهم حتى جرعوهم الموت، فكان البيت الأخير متسقا مع الفكرة معلما بالنهاية:

فَمَا بَرِحَتْ أَقْدَامُنَا مِنْ مَقَامِنَا ثَلَاثَتِنَا حَتَّى أُزِيْرُوا الْمَنَائِيَا

يعد هذا الختام بمثابة القفل، أو الحبكة الدرامية للحدث وبالتالي فلن ينتظر المتلقي شيئا بعدها، لأنه أحدث عند السامع ما يمكن أن نطلق عليه الرضا الداخلي أو القناعة النفسية التي لا يبغي بعدها زيادة.

وعلى هذا النسق من الختام الذي أشبه الختام الملحمي يأتي ختام قصيدة الشاعر عبد الله بن سبرة في رثاء يده فبعد أن رثا يده ووصف عدوه يصور للمتلقين المشهد الأخير من أحداث المعركة بعد أن قطع أطربون الروم يده، ويذكر ثأره منه وتركه جزر السباع، واصفا إصابته بشي من التكثيف، يقول من البسيط:(٢)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، صـ ٢٦٠.
(٢) الأمالي، لأبي علي القالي، جـ ١، صـ٤٧.

فَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُــونُ الــرُّوْمِ قَطَّعَهَــا فَقَــــدْ تَرَكْــــتُ بِهَــــا أَوْصَــــالَهُ قِطَعَــــا
وَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُــونُ الــرُّومِ قَطَّعَهَــا فَــــإِنَّ فِيْهَــــا بِحَمْــــدِ اللهِ مُنْتَفَعَــــا
بَنَــاتَيْنِ وَجُــذْمُوْرًا أُقِــيْمُ بِهَــا صَــدْرَ القَنَــاةِ إِذَا مَــا آنسُــوا فَزَعَــا

يلمح الشاعر في بيته الأخير إلى الجانب الإيجابي في المأساة فقد بقي له في يده ما يقوى به على إقامة صدر القناة إذا فزع قومه ليظل حامي حماهم، إذا فالمصاب ليس جللا، والإصابة ليست بالغة حد الموت أو الفقد التام، وبالتالي فقد جاء الختام مُرْضيا لجمهور السامعين، وهذا هو المشهد أو المعنى الذي يلح عليه الشاعر ليظل عالقا في ذهن المتلقي، كما جاء الختام إجمالا لتفصيل سبق، وتأكيدا لمضمون مضى، فكان موائما للفكرة العامة للقصيدة، وأرى أن هذا الختام هو ما عناه العلوي (تـ ٧٤٥ه) بقوله: "ينبغي لكل بليغ أن يختتم كلامه في أي مقصد بأحسن الخواتيم"[١].

ثانيا: سمات شعر رثاء الأعضاء في صدر الإسلام :

أ: الذاتية :

أبرز السمات التي تميز الشعر الغنائي عن غيره سمة الذاتية، فهو الشعر الذي يبوح فيه الشاعر بصوت نفسه ومن ثم ترجمة مشاعره وإظهار أحاسيسه للمتلقين، ونقصد به "العكوف على النفس وتحليلها"،[٢] حيث يتغور الشاعر في أعماق نفسه وكأنه يتحسس وجدانه ومشاعره، يقول الناقد فنست عن الشعر الغنائي "هو التعبير عن الإحساس الشخصي، على شرط أن يفهم من هاتين الكلمتين – إحساس شخصي– أوسع معانيها"[٣].

وهكذا كان الشاعر الإسلامي في رثاء أعضائه؛ ذاتيًا معبرًا عما في نفسه من عواطف وانفعالات مشحونة، مصورًا مأساته، يحاول الكشف عن ذات نفسه وبهذا نَرُدُّ

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تأليف يحيى العلوي، ط المكتبة العصرية (بيروت)، ط الأولى ١٤١٢٣هـ، جـ٣، صـ١٠٤.
(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د/ محمد مصطفى هدارة، ط المكتب الإسلامي، دمشق، ط الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م، صـ ١٨٤.
(٣) نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة : حسن عون، ط منشأة المعارف، ط الأولى ٢٠٠٠م، صـ ١٣٤.

على من اتهم أدبنا الغنائي بانعدام الذاتية من المستشرقين وغيرهم أمثال " كارل بيكر" ممن يرون أن الفنون الشخصية بوجه عام غير شخصية، وأنها تعوزها النزعة إلى تصوير الذات، لأن الشاعر أو الفنان الشرقي عامة، انغمس في معالم الكون من حوله، ولجأ إلى التجريد المطلق كما في الفن الإسلامي(١).

ولكن أحب أن أشير إلى أن ذاتية الشاعر الإسلامي في رثاء الأعضاء لا تعني اختفاء روح الجماعة، أو فرديته المطلقة فما أكثر وجود ضمير الجماعة في القصائد الإسلامية، ولكن الذاتية في الشعر الإسلامي لها خاصيتها المتفردة التي تميزت بها ، فحينما كان "الفرد يصدر في هذا الشعر عن ذات نفسه، كان يعدّ هذه الذات جزءًا من الجماعة التي تمثل ضميرها، فصدر عنها في صدوره عن ذاته، واشتق معانيه من وحيها، وهو حينئذ إنما يفخر بنفسه من حيث هو فرد منها، ليعود عليها كُلّمَا يذكر عن نفسه..."(٢).

ولنتأمل بعض الأبيات من شعر رثاء الأعضاء لنؤكد هذه الذاتية، ففي قصيدة الصحابي عبيدة بن الحارث في رثاء رِجْلِه ، نجده يستخدم ضمير النفس في أكثر من موضع، ويظهر ذلك في قوله:(٣)

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ ... أُرَجِّي بِهَا عَيْشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا
مَعَ الْحُورِ أَمْثَالِ التَّمَاثِيْلِ أُخْلِصَتْ ... مَعَ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا لِمَنْ كَانَ عَالِيَا
وَبِعْتُ بِهَا عَيْشًا تَعَرَّقْتُ صَفْوَهُ ... وَعَالَجْتُهُ حَتَّى فَقَدْتُ الْأَدَانِيَا
فَأَكْرَمَنِي الرَّحْمَنُ مِنْ فَضْلِ مَنِّهِ ... بِثَوْبٍ مِنَ الْإِسْلَامِ غَطَّى الْمَسَاوِيَا
وَمَا كَانَ مَكْرُوهًا إِلَيَّ قِتَالُهُمْ ... غَدَاةَ دَعَا الْأَكْفَاءُ مَنْ كَانَ دَاعِيَا

---

(١) ينظر: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ألف بينها وترجمها: عبد الرحمن بدوي، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٠م، صـ٢٨، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، صـ ١٨٤.

(٢) شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، د/ النعمان عبد المتعال القاضي، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة)،١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، صـ٢٦٩.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، صـ ٢٦٠.

فصوت النفس واضح في تصوير الشاعر مأساته الخاصة قطع الرِّجْل، وانطوائه على عالمه الشخصي فنرى ضمير المتكلم كثيرًا في أبياته، والذي يأتي تارة بدون تأكيد وأخرى مؤكدًا بإنَّ، نلحظ ذلك في قوله: "رجلي، فإني، أرجى، فأكرمني، إليَّ".

كما يقابلنا الشاعر في أبياته بضمير المتكلم "بعتُ، تعرقتُ، عالجتُه، فقدتُ"، ومن ثم فالتجربة تمضي بنا في حديث متصل مصور للذات، وما يعتلج فيها من ألم أو صراع، مع ظهور الروح الإسلامية التي تسربل بها وانطلق من تعاليمها.

ونلمس ذلك أيضا في قول عبد الله بن سبرة الحرشي في رثاء يده من البسيط :

يُمْنَى يَدَيَّ غَدَتْ مِنِّي مُفَارِقَةً لَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ " فلطاسٍ" لَهَا تَبَعَا
وَمَا ضَنِنْتُ عَلَيْهَا أَنْ أُصَاحِبَهَا لَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى أَنْ نَسْتَرِيْحَ مَعَا

نلحظ أن الشاعر استخدم الأدوات السابق ذكرها من ضمير النفس المتمثل في ضمائر المتكلم، وما هي إلا أدوات لفظية تعد رموزا للعالم الداخلي المكشف بالمشاعر والأحاسيس فهذه القصائد وأشباهها من القصائد التي يصور فيه الشاعر مأساته تدل دلالة واضحة على أن الشاعر الإسلامي كان شاعرا ذاتيا معبرا عما يعتمل في نفسه من عواطف وانفعالات تكشف عن ألمه أو حزنه أو فرحه، وهو في ذلك لا ينسى جماعته فحينما يصور آلام نفسه يصور آلام أمته التي هو لبنة من بنيانها.

ب : الصدق الفني :

حين ينفعل الشاعر بتجربته، ويصدق في عاطفته، ويحس بمعاناته إحساسا يملئ عليه كيانه، ويترك نفسه على سجيتها لتخرج ما بداخله؛ يأتي الصدق في التعبير عن هذه المشاعر، ومن ثم يتميز شعر عن شعر وشاعر عن آخر، لأن تأثره كان حقيقيا أبعد ما يكون عن الادعاء أو التكلف في القول أو التقعر في تجويد العمل، فتحقق له ما أطلق عليه النقاد (الصدق الفني) لحظة الإبداع.

فالناقد الموضوعي لا يستطيع أن يطلع على ذات الشاعر أو ضميره الكامن بداخله ليحكم له أو عليه بتحقق الصدق من عدمه، لذا يحاول أن يلمس ذلك من خلال عدة أمور منها: الحرارة أو الانفعال الظاهر في الألفاظ أو الأساليب، أو الصور أو الموسيقى والتي تكون دليله على تحقق صدق الشاعر من عدمه، كذلك إيمان الشاعر بفكرته وإخلاصه لها، أو تبنيه مبدأ معينا أو عقيدة يدافع عنها، وأيضا الرغبة في التعبير عن التجارب الخاصة به التي تسجل معاناته الشخصية وبُعده عن المجاملة في القول كشعر المدح وغيره " فلا يعد من التجارب الصادقة في شيء شعر المناسبات، لأنه لا يعتمد على صدق الشاعر، ولأنه يجعل من الشعر مهنة أو دعاية، عمادها خلق مشاعر لمجاراة شعور الآخرين..."[1]، كما انعدم عنصر الصدق من التجربة حينما لم تعد تجربته "تنبع من حاجة الشاعر الداخلية إلى التعبير عن مشاعره وانفعالاته بقدر ما تصبح إحدى الوسائل التي يقنع بها الشاعر جماهيره التي تستمع إليه، ويدفعها إلى فعل أو انفعال، يتلاءم مع الجانب النفعي المباشر للشعر"[2].

وبعد تأمل شعر رثاء الأعضاء لشعراء عصر صدر الإسلام، وجدت أن أبرز سماته الصدق الفني أو العاطفي في التعبير عن التجربة، لأنها انبعثت من خلال نفسه ومشاعره وعبرت عن معاناته الخاصة، وصورت مأساته التي نبعت من فَقْدِ أحد أعضائه نتيجة لإخلاصه لفكرته، واستماتة في الدفاع عن إيمانه بعقيدته، كما أنها صدرت عن تجربة شخصية عايشها بنفسه واتقدت في نفسه دواعيها.

وكل ما مَرَّ بنا من نماذج شعرية دليل على صدق العاطفة وتوقدها، كما يؤيد ذلك ما تضمنه الشعر من قيم جمالية تمثلت في ألفاظه وأساليبه، وصوره، وموسيقاه – وهو ما سوف نقف معه بشيء من التحليل في المباحث التالية – فمن المعلوم أن "الشاعر العظيم هو الذي يوفق في فنه إلى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال والأسلوب

(١) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، صـ ٣٩١.
(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د/ جابر عصفور، الناشر المركز الثقافي العربي، ط الثالثة ١٩٩٢م، صـ٣٦٧.

والوزن"،[1] وهذا كله وغيره يبرهن على تميز الشاعر الإسلامي بالصدق الفني، حتى أصبحت نصوص تجاربه تشع حرارة تنتقل من النص المقروء إلى القارئ، ومن الملقي إلى المتلقي.

ج : الطبـــع :

من أبرز السمات التي تميز بها شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام صدوره عن طبع وبعده عن التكلف أو التقيد بالقوالب التعبيرية الجامدة، كما أن هذا اللون من شعر الرثاء أبعد ما يكون عن التكسب، ومجيء أغلبه على غرار شعر الخاطرة أو العفوية التي تقلل من فرصة المعاودة والتنقيح، فهو شعر إلهام حاضر لا إكراه، وهذا اللون من الشعر هو ما حمده الجاحظ (تـ ٢٥٥ه) حين وازن بين الشعر النابع من الإلهام وإن كان قليلًا ، والشعر الكثير المتكلف الخالي من الطبع في قوله: "الذي تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس سهلًا رهوًا، مع قلة لفظه وعدد هجائه، أحمد أمرًا... من كثير خرج بالكد والعلاج"[2].

ولعل أهم دواعي صدور شعر رثاء الأعضاء عن طبع أن جُلَّه شعر الموقف وهو أهم سمات شعر الغزوات الإسلامية "فليس ثمة شيء يريد المجاهد أن يفضي به غير مشاعر اللحظة الوجيزة الحادة يلقيها دونما إسهاب أو إطالة، فهي مشاعر بسيطة واضحة، وليست بحاجة إلى بيان أو إيضاح أو إفاضة، كما أنها ليست بحاجة إلى إلحاح على الفكرة أو تقليب لها على وجوهها، أو تشقيقها أو التوليد منها، وإنما هي بريق خاطف، وانفعال لاهب، وانطلاق راكض، وتعبير مركز مضغوط"[3]، فأغلب شعر رثاء الأعضاء جاء في مقطوعات شعرية، ولم يأت في قصائد كاملة إلا أقله، وأكثر النقاد الذين اتهموا شعرنا

---

(1) قضايا جديدة في أدبنا الحديث، د/ محمد مندور، ط دار الآداب (بيروت)، ١٩٨٥م، صـ١٠٩.

(2)البيان والتبيين، للجاحظ (تـ ٢٥٥هـ)، الناشر دار ومكتبة الهلال (بيروت)، ١٤٢٣هـ، جـ٣، صـ٢٢٨.

(3) الشعر الجاهلي بين القصيدة والمقطوعة، د/حسن عباس، (د.ن) القاهرة ١٩٩٣م، صـ١٢٨.

القديم بغلبة الصنعة والتكلف عليه غفلوا عن شعر المقطوعات الذي يأتي عفو الخاطر، أو استجابة لموقف وهو الأمر الذي جعل أحد الباحثين يفرد دراسة لهذه القضية، ليرد على هذا الحكم الجائر قائلا: "ولو أن هؤلاء الدارسين التفتوا إلى المقطعة، وأعطوها ما تستحق من اهتمام لرأوا فيها الوجه المشرق للشعر العربي، فعلى حين كانت القصيدة العربية ترسف في أغلال التكسب والصنعة والقوالب التعبيرية، كانت المقطعة أنشودة حرة طليقة تعبر عن وجدان الشاعر العربي، ورؤيته للوجود"(١).

ومن هنا أؤكد أن المقطوعات الشعرية لرثاء الأعضاء خرجت مطبوعة ذاتية صادقة أبعد ما تكون عن التكلف بل مثلت شعر الطبع الخالص الذي لا يشوبه تكلف.

د : انبثاقه من روح الإسلام ومعانيه :

من المعلوم أن الإسلام حينما جاء بعقيدته وتعاليمه أخذ يغير الوجه العام للحياة التي عاشها العرب ومنهم الشعراء، كما أخذ يشكل الوجدان الروحي للمسلم وعقله ونمط تفكيره، فلما نزل القرآن الكريم واستمع المسلمون إلى أحاديث النبي الأمين (ﷺ) تأثروا بمعانيها تأثرا بالغا، وانطلقوا ينهلون من منبعها الثري يحفظون ويرتلون، ويكتبون؛ فهذبت أخلاقهم، وارتقى أسلوبهم، ومن ثم جاء شعر صدر الإسلام صورة للمعاني التي تمثلها القرآن الكريم، والسنة المطهرة من تعاليم وأخلاق وآداب.

وشعر رثاء الأعضاء انبثق من الروح والمعاني الإسلامية لأن شعراء هذا الغرض، فقدوا أعضاءهم في غزوات الإسلام، فراحوا يرثونها رثاء جديدا ينبثق من روح المسلم الذي يثق بنصر ربه، فواجهوا الموت بعزة بل كان حرصهم عليه أشد من حرصهم على الحياة ليقينهم بحسن الثواب، ومسارعتهم للفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، ولعل أبرز ما شاع في شعرهم روح الرضا والتسليم الذي هو ثمرة الإيمان وحسن الاعتقاد، فمن نماذج شيوع روح التسليم والاستهانة بالموت والنصيحة للفوز بالحياة الباقية وهي معان إسلامية خالصة، قول عبيدة بن الحارث في رثاء رجله من الطويل:(٢)

---

(١) الشعر الجاهلي بين القصيدة والمقطوعة، صـ ١٢٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٢، صـ٢٥٩.

فَـــإِنْ تَقْطَعُـــوا رِجْلِـــي فَـــإِنِّي مُســـلِمٌ أُرَجِّـــي بِهَـــا عَيْشًـــا مِـــنَ اللهِ دَانِيَـــا
مَعَ الْحُـــوْرِ أَمْثَـــالِ التَّمَاثِيْـــلِ أُخْلِصَـــتْ مَـــعَ الْجَنَّـــةِ الْعُلْيَـــا لِمَـــنْ كَـــانَ عَالِيَـــا

وقول عثمان بن مظعون في رثاء عينه من الطويل :(١)

فَإِنْ تَكُ عَيْنِي فِـي رِضَـا الـرَّبِّ نَالَهَـا يَـــدَا مُلْحِـــدٍ فِـــي الـــدِّيْنِ لَـــيْسَ بِمُهْتَـــدِ
فَقَـــدْ عَـــوَّضَ الـــرَّحْمَنُ مِنْهَـــا ثَوَابَـــهُ وَمَـــنْ يَرْضَـــهُ الـــرَّحْمَنُ يَـــا قَـــوْمِ يَسْـــعَدِ

وقول علباء بن جحش العجلي في رثاء أمعائه من الوافر:(٢)

أَرْجُـــو بِهَـــا مِـــنْ رَبِّنَـــا ثَوَابَـــا قَـــدْ كُنْـــتُ مِمَّـــنْ أُحْسِـــنُ الضِّـــرَابَا

من خلال مضامين هذه الأبيات وغيرها نلحظ أن الإسلام أعاد تشكيل رؤى الشعراء ونظرتهم للأمور، فأصبحوا لا يندبون ما يفقدون بقدر سعادتهم بما يفوزون أو يحققون من نصر؛ حتى استهانتهم بقوى الباطل فتمثلوا المعاني الإسلامية في تعبيرهم عن معانيهم، وضمنوا شعرهم روح الإسلام التي تغلغلت في أنفسهم. لقد غرست تعاليم الإسلام فيهم معاني القوة، فأصبحوا لا يستشعرون ضيقًا أو ضجرًا فيما يقابلون من أحداث جسام يفقدون فيها أغلى ما يملك الإنسان بل يفخرون بما يقدمون، ومن ثم شاع في شعر رثاء الأعضاء الفخر بالشجاعة والإقدام والتضحية، ويؤكد ذلك فخر الشاعر السليك العقيلي بتضحيته هو وأخوه عطارد في إحدى المعارك ،التي راحت فيها كفه وساعده فرثاها قائلًا من الرجز :(٣)

كَيْـــفَ تَرَانِـــي وَأَخِـــي عُطَـــارِدَا نَـــذُوْدُ مِـــنْ حَنِيْفَـــةَ الْمَـــذَاوِدَا
نَـــذُوْدُ مِـــنْهُمْ سِـــرْعَانًا وَارِدَا أَنْشُـــدُ كَفًّـــا ذَهَبَـــتْ وَسَـــاعِدَا
أَنْشُـــدُهَا وَلَـــا أُرَانِـــي وَاجِـــدَا إِلَـــا فَتًـــى يَسْـــقِي شَـــرَابًا بَـــارِدَا

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، جـ١، صـ ١٠٤.
(٢) تاريخ الطبري، جـ ٣، صـ ٥٤.
(٣) المؤتلف والمختلف، للآمدي ، صـ ١٧٦.

نعم لا بأس بذلك ما دام اللهُ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، ووَعَدَهُمْ جنة لا ينقطع نعيمها، وعليه فلا يضير المسلم ما حدث وما لاقى وقد وعده الله إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (١).

ثالثا : المعجم الشعري :

لكل تجربة معجمها الشعري الخاص الذي يعبر من خلاله عن مكنون الأحاسيس، ويستخرج به دفين المعاني، ونقصد بالمعجم الشعري "تلك الألفاظ التي يكثر دورانها في قصائد شاعر، أو مجموعة من الشعراء حتى يصير ملمحا أسلوبيا"(٢) يتصف به النص الشعري، كما يراد به أيضا توافق الألفاظ لمضمون التجربة عند الشاعر، فللألفاظ دورها الحيوي في بناء النص وتأليفه وانسجام معانيه، فهي الأداة التي ينقل من خلالها مشاعره وأفكاره، فاللفظة هي الوسيلة الرئيسة التي يتكئ عليها الشاعر ليخرج للمتلقي ما يمور بداخله من معان وأفكار لأن الفكر " لما كان موجها دائما إلى الخارج، فإن تجسيده يكون في اللغة أو الألفاظ، وهذه اللغة ليست رداء للفكر أو قالبا له وإناء يحتويه، وإنما هي الفكر نفسه مجسدا في ألفاظ لغوية"،(٣)كما تكمن أهمية الوقوف مع الألفاظ بالدرس والتحليل والنقد أن "أول ما يلقانا في نصوص الشعر ألفاظه، وهي ليست ألفاظا محدودة الدلالة يدل بها الشعراء على أشياء حسية من واقعهم الخارجي، فإنهم لا يعبرون عن هذا الواقع ومسمياته الحقيقية، وإنما يعبرون عن واقعهم النفسي وما تختلج به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس"(٤). ولهذا

---

(١) سورة التوبة : ٥٢.
(٢) البناء الفني في شعر ابن جابر الأندلسي، د/ سلام علي حمادي الفلاحي، ط دار غيداء للنشر والتوزيع عمان، ط الأولى ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣ م، صـ ٨١.
(٣) دراسات في لغة الشعر، د/ رجاء عيد، ط منشأة المعارف (الأسكندرية) ١٩٧٩م، صـ ٤٨.
(٤) في النقد الأدبي، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف ١٩٩٢م، صـ ٢٩.

الدور الفاعل للألفاظ في نجاح التجربة ودورها في تفتق المعاني "تعتبر السبب الأساسي لكل نقد يوجه إلى اللغة، ولا غرابة في ذلك، فاللفظة هي أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل"(١).

ومن خلال استقرائي لشعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام ،تبين أن لـه معجمًا خاصًا اتصف بعدة ظواهر ، جاءت محملة بطاقات شعرية مشحونة بالمشاعر والأحاسيس، كما أنه جاء خادمًا للفكرة المتغياة ، معبرًا عنها، وتشكل من عدة سمات أبرزها ، ما يأتي:

أ : معجم ألفاظ الأعضاء :

نجد ألفاظ الأعضاء تحتل مساحة واسعة في شعر رثاء الأعضاء، فيذكرها الشاعر بمعناها المعجمي مع ما تشير إليه من معان إيحائية شاعرة كالتضحية والبذل في سبيل الله...

ففي رثاء " الرِّجْل " تقابلنا اللفظة صراحة أو مرادفها كالساق سبع مرات في نتاج شعر رثاء الأعضاء، ونجد ذلك في قول الشاعر عبيدة بن الحارث بن المطلب حين قطعت رجله يوم بدر فرثاها قائلا:

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ أُرَجِّي بِهَا عَيْشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا

وقول الصحابي الضحاك بن خليفة حينما كسرت رجله أثناء فراره فرثاها بقوله من الطويل:(٢)

وَظَلْتُ وَقَدْ طَبَّقْتُ كِبْسَ سُوَيْلِمٍ أَنُوءُ عَلَى رِجْلِي كَسِيْرًا وَمِرْفَقِي

وقول حكيم بن جبلة في رثاء رِجْلِه حينما قُطِعت في إحدى الغزوات مع الصحابي الجليل علي بن أبي طالب فقال من الرجز:(١)

(١) دلالة الألفاظ العربية وتطورها د/ مراد كامل، ط نهضة مصر ١٩٦٣.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٥، ٦ ، صـ٤.

يَا سَاقُ لَا تَرَاعِي ... إِنَّ مَعِي ذِرَاعِي ... أَحْمِي بِهَا كُرَاعِي .

وقول الشاعر سوار بن أبي أوفى في حق أخيه حياض القشيري حينما قطعت رجله من الطويل:

وَمِنَّا ابْنُ عَتَّابٍ وَنَاشِدُ رِجْلِهِ ... وَمِنَّا الَّذِي أَدَّى إِلَى الْحَيِّ حَاجِبَا

وقول الشاعر حياض بن قيس القشيري حينما قطعت رجله في معركة اليرموك سنة ١٥هـ من الرجز:

أَقْدِمْ حِذَامُ إِنَّهَا الْأَسَاوِرَه ... وَلَا تَغُرَّنَّكَ رِجْلٌ نَادِرَهْ

وقول الشاعر الطائي الأعرج يرثي حاله ويشكو علته ، من الطويل :

وَتَشْكِي إِلَى جَارَتِهَا وَتَعِيْبُنِي ... فَقَالَتْ مَعَاذَ اللهِ أَنْكِحُ ذَا الرِّجْلِ

وفي رثاء اليَدّ :

يقابلنا الشعراء بذكر لفظة اليَدّ ،أو ما يرادفها ، أو يشير إليها لتكون دالًا شعوريًا على ما يعتمل في نفسه من مشاعر، ونجد ذلك في قول الشاعر عبد الله بن سبرة في رثاء يده التي قطعت في بعض غزوات المسلمين مع الروم :

يُمْنَى يَدَيَّ غَدَتْ مِنِّي مُفَارِقَةً ... لَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ " فلطاسٍ" لَهَا تَبَعَا

وفي موضع آخر من القصيدة نفسها يشير إلي يده، ويذكر بعض الأعضاء التي تشتمل عليها كالبنانة والجذمور، يقول :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧، ٨، صـ ٢٢١

وَإِنْ يَكُــــنْ أَطْرَبُـــونُ الـــرُّومِ قَطَّعَهَـــا فَـــــإِنَّ فِيْهَـــــا بِحَمْـــــدِ اللهِ مُنْتَفَعَـــــا
بَنَـــــانَتَيْنِ وَجُـــــذْمُوْرًا أُقِـــــيْمُ بِهَـــــا صَـــدْرَ القَنَـــاةِ إِذَا مَـــا آنسُـــوا فَزَعَـــا[1]

ومن ذلك قول الشاعر السليك العقيلي حينما قطعت يده في حروب الردة فأنشدها، يقول :

نَـــــذُوْدُ مِـــــنْهُمْ سِـــــرْعَانًا وَارِدَا أَنْشُـــــدُ كَفًّـــــا ذَهَبَـــــتْ وَسَـــــاعِدَا

ومن ذلك ما رواه القاضي الماوردي عن أحد اللصوص حينما قدم للقصاص فأخذ يرثـي يده قائلا:

يَمِيْنِـــي أَمِيْـــرَ الْمُـــؤْمِنِيْنَ أُعِيْـــذُهَا بِعَفْـــوِكَ أَنْ تَلْقَـــى مَكَانًـــا يَشِـــيْنُهَا
يَدِي كَانَـــتِ الْحَسْـــنَاءَ لَـــوْ تَـــمَّ سِـــتْرُهَا وَلَـــا تُعْـــدَمُ الْحَسْـــنَاءُ عَيْبًـــا يَشِـــيْنُهَا

وفي رثاء العين يشتمل معجم الشعراء على اللفظة التي تشكل ملمحًـا تصـويرًا للمأساة التي تكتنف الشاعر، ومن ذلك قول الصحابي عثمان بن مظعون حينما فقـأ أحـد المشركين عينه فرثاها قائلًا:

فَإِنْ تَـــكُ عَيْنِـــي فِـــي رِضَـــا الـــرَّبِّ نَالَهَـــا يَـــدَا مُلْحِـــدٍ فِـــي الـــدِّيْنِ لَـــيْسَ بِمُهْتَـــدِ

وقول الصحابي علي بن أبي طالب (ﷺ) في رثاء عين عثمان بن مظعون(ﷺ) :

إِذْ يَلْطِمُـــوْنَ وَلَـــا يَخْشَـــوْنَ مُقْتَـــهُ طَعْنًـــا دَرَاكـــاً وَضَـــرْبًا غَيْـــرَ مَـــأْفُوْنِ

وقول الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي حينما أصيب في إحدى عينيه في إحـدى مغـازي الروم:

أَعْشُـــو بِعَـــيْنٍ وَأُخْـــرَى قَـــدْ أَضَـــرَّ بِهَـــا رَيْـــبُ الزَّمَـــانِ فَأَمْسَـــى ضَـــوْؤُهَا خَمَـــدَا

(1) بَنَانَتَيْن : البَنَان : الأصابع أو أطرافها. جُذْمُوْرً : هو أصل الشيء أو أوله .

وقوله في أبيات أخرى :

وَرُبَّـــتَ سَـــائِلٍ عَنِّـــي حَفِـــيٍّ أَعَـــارَتْ عَيْنُـــهُ أَمْ لَـــمْ تَعَـــارَا[1]

ومن ذلك قول بشر بن العسوس بعد أن فقئت عينه يوم صفين :

أَلَـــا لَيْـــتَ عَيْنِـــي هَـــذِهِ مِثْـــلُ هَـــذِهِ وَلَـــمْ أَمْـــشِ فِـــي الْأَحْيَـــاءِ إِلَّـــا بِقَائِـــدِ

وفي رثاء الأمعاء لا نجد ذكرًا لها صراحة ، بل نجد الإشارة إليهـا بالضـمير، بقصد تصوير الإصابة واحتساب أجرها عند الله ، كما في قول علباء بن جحش العجلي ، حينما أصيب في بطنه بضربة أخرجت أمعاءه واستشهد على إثرها ، وهو يردد :

أَرْجُـــو بِهَـــا مِـــنْ رَبِّنَـــا ثَوَابَـــا قَـــدْ كُنْـــتُ مِمَّـــنْ أُحْسِـــنُ الضِّـــرَابَا

وفي بيت آخر تقابلنا لفظة الأحشاء في وصف الشاعر أبو الضب ما فعله بخصمه :

فَتَرَكْـــتُ مَسْـــعُوْدًا عَلَـــى أَحْشَـــائِهِ حَـــرَّى يُعَانِـــدُهَا نَجِيْـــعٌ أَسْـــوَدُ[2]

ومن ثم فإننا أمام ألفاظ الأعضاء والتي تمثلت في (الرجل، الساق، اليد، الذراع، الكف، العين، المقلة، رؤوس، الأحشاء)، وهي كلمات ذات حقل موضوعي واحد تشـكلت من خلاله ما يمكن أن نطلق عليه معجم ألفاظ الأعضاء في الشعر الإسلامي، إضافة لمـا تحمله هذه الكلمات من معان ومشاعر تصور حجم المأساة وشعور الفقد، بالإضـافة إلـى المعنى الذي تستمده من سياقها فهي قُرْبَةٌ تقرب بها أصحابها للخالق سبحانه وتعالى.

---

(١) السائل الحفي : المستقصي في السؤال، وعارت : زالت .

(٢) حرَّى : طعنة شديدة على صاحبها، و نجيْعٌ : دم طري . شرح ديوان الهذليين للسكري، جـ٣، صـ ٧٠٤.

ب : معجم الألفاظ الإسلامية:

يتشكل المعجم الإسلامي من خلال الكلمات التي تعبر عن معاني وروح أو تعاليم الإسلام، وكذلك نسمع فيه الألفاظ التي لم تكن في الشعر الجاهلي... ونلحظ ذلك في قول عبيدة بن الحارث بن المطلب في رثاء رجله :

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ أُرَجِّي بِهَا عَيْشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا
مَعَ الْحُورِ أَمْثَالِ التَّمَاثِيْلِ أُخْلِصَتْ مَعَ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا لِمَنْ كَانَ عَالِيَا
وَبِعْتُ بِهَا عَيْشًا تَعَرَّقْتُ صَفْوَهُ وَعَالَجْتُهُ حَتَّى فَقَدْتُ الْأَدَانِيَا

فهذه الأبيات تظهر بوضوح أثر الإسلام في الشعراء والذي ظهر في ألفاظهم وتراكيبهم ومعانيهم التي أضحوا يودعونها أشعارهم، ويمكن رصد بعض الألفاظ الإسلامية في هذه المقطعة الشعرية مثل قوله: "مسلم، الحور، الجنة العليا، الإسلام...".

كما تظهر هذه الألفاظ التي تعبر عن المعاني والمضامين الإسلامية ، في قول الشاعر عثمان بن مظعون في رثاء عينه :

فَإِنْ تَكُ عَيْنِي فِي رِضَا الرَّبِّ نَالَهَا يَدَا مُلْحِدٍ فِي الدِّيْنِ لَيْسَ بِمُهْتَدِ
فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ وَمَنْ يَرْضَهُ الرَّحْمَنُ يَا قَوْمِ يَسْعَدِ
فَإِنِّي وَإِنْ قُلْتُمْ غَوِيٌّ مُضَلَّلٌ سَفِيْهٌ عَلَى دِيْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ
أُرِيْدُ بِذَاكَ اللهَ وَالْحَقَّ دِيْنَنَا عَلَى رَغْمِ مَنْ يَبْغِي عَلَيْنَا وَيَعْتَدِي

تقابلنا الألفاظ "رضا الرب، ملحد في الدين، مهتدي، عوض الرحمن، ثوابه، يرضه الرحمن، دين الرسول محمد، الله، والحق، ديننا ..." .

فالمعجم هنا معجم مكثف غني بالألفاظ والكلمات الإسلامية وأغلبها كلمات جدت وظهرت مع الإسلام وتعاليمه، ويؤيد ذلك قول ابن فارس" كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم، وآدابهم، ونسائكهم، وقرابينهم، فلما جاء الله – جل ثناؤه

– بالإسلام، حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع أخرى بزيادات زيدت، وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفى الآخر الأول".[1]

ج: معجم ألفاظ الحرب :

حفل شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام بألفاظ آلات الحرب والقتال، ومرجع ذلك أن أغلب هذا الشعر أنشد نتيجة إصابة الأعضاء في الغزوات، ووردت في النص بما تحمل هذه الألفاظ من طاقات شعورية تدل على الشجاعة والبطولة... وغير ذلك ومن ثم شكلت معجما خاصا لألفاظ الحرب في شعر رثاء الأعضاء ومن ذلك الألفاظ (قتالهم، القنا...) في قول عبيدة بن الحارث في رثاء رجله يقول:

وَمَا كَانَ مَكْرُوْهًا إِلَىَّ قِتَالُهُمْ غَدَاةَ دَعَا الْأَكْفَاءُ مَنْ كَانَ دَاعِيَا

....

لَقِيْنَاهُمْ كَالْأُسْدِ تَخْطُرُ بِالْقَنَا نُقَاتِلُ فِي الرَّحْمَنِ مَنْ كَانَ عَاصِيَا

والألفاظ : (أضرب، السيف، رؤوس) في قول ناشد رجله:

أَنَا الْقُشَيْرِيُّ أَخُو المُهَاجِرَه أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رُؤُوْسَ الْكَافِرَه

والألفاظ: (بمنصله، بطل، سيفيهما، ماضي الحد...) في قول ابن عبد الله بن سبرة في رثاء يده:

وَكَيْفَ أَرْكَبُهُ يَسْعَى بِمُنْصُلِه نَحْوِي وَأَعْجَزُ عَنْهُ بَعْدَ مَا وَقَعَا

....

يَمْشِي إِلَى مُسْتَمِيْتٍ مِثْلِهِ بَطَلٍ حَتَّى إِذَا أَمْكَنَا سَيْفَيْهِمَا امْتَصَعَا

كُلٌّ يَنُوْءُ بِمَاضِي الْحَدِّ ذِي شُطَبٍ جَلَّى الصَّيَاقِلُ عَنْ ذَرِّيِّه الطَّبَعَا

---

(1) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لأحمد فارس تحقيق مصطفى الشويمي، ط مؤسسة بدران للنشر(بيروت) ١٩٦٣م، صـ ٧٨.

والألفاظ: "سهمه، سهم، مشقصا" في رثاء عمرو بن أحمر الباهلي عينه، يقول:

غَـــادرَنِي سَـــهْمُهُ أَعْشَـــى وَغَـــادرَهُ سَهْمُ ابْـنِ أَحْمَـرَ يَشْـكُو الـرَّأْسَ وَالْكَبِـدَا

....

أَهْـوَى لَهَـا مِشْقَصًـا حَشْـرًا فَشَـبْرَقَهَا وَكُنْـتُ أَدْعُـو قَـذَاهَا الإِثْمِـدَ القَـرِدَا

ولفظتا " فوارس، الحرب" في قول الشاعر بشر بن العسوس بعد أن فقئت عينه يوم صفين:

فَـوَارِسَ لَـمْ تَغْـذُ الْحَوَاضِـنُ مِـثْلَهُمْ إِذَا الْحَـرْبُ أَبْـدَتْ عَـنْ خَـدامِ الْخَرَائِـدِ[1]

ولفظة " حربة " في قول كعب بن مالك يبكي حمزة وشهداء أحد رضي الله عنهم:

فَـأَوْجَرَهُ حَرْبَـةً كَالشِّـهَابِ تَلْهَّـبُ فِـي اللَّهَـبِ الْمُـوْهَجِ[2]

ومهما يكن من أمر فإن رثاء الأعضاء اشتمل على الكثير من الكلمات والألفاظ التي تتصل بالحرب من ذكر الآلات الحربية، أو الفوارس، أو القتل، مع ما تحمله من معان ودلالات شعورية تبرهن على معاني البطولة، والتضحية وتلبية نداء الله ونصرة الحق، ومرجع ذلك أن فقد هذه الأعضاء التي قام الشعراء برثائها وقع في الغزوات والفتوحات الإسلامية.

د : معجم ألفاظ رثاء الأعضاء بين الجزالة والرقة :

ولعل هذه أبرز الظواهر التي تشكل منها معجم ألفاظ رثاء الأعضاء وهو تفاوتها بين السهولة والعذوبة –وهو الأعم الأغلب– والجزالة والقوة، ومرد هذا التفاوت إلى أمور أهمها البيئة التي نشأ فيها الشاعر هل هي بيئة البدو أم الحضر؟ وكذلك طبع الشاعر، ومهاراته هل هذا القائل ممن عرف عنهم الشعر قبل ذلك، أم ممن أنطقتهم الحرب بداع

(1) الحواضن: الأمهات. الخدام: السيقان، واحده خدمة.
(2) أوجره : طعنه ، والشهاب: القطعة من النار، والموهج: المتقد .

من فطرتهم وسليقتهم العربية؟ وتفاوت ألفاظ الشعراء رقة وسهولة، أو فخامة وجزالة أمر من الأمور التي التفت إليها النقد القديم وعلل لها بوصفها ظاهرة غالبة يقول الجرجاني: "...القوم يختلفون في ذلك، وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك باختلاف الطبائع، وتركيب الخلق فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر الخلقة"(١).

فمن نماذج شعر رثاء الأعضاء ،الذي تميز بالرقة والسهولة ، قول الشاعر حكيم بن جبلة في رثاء رِجْلِه:

دَعَـــــاكِ خَيْـــــرُ دَاعِـــــي يَـــــا نَفْـــــسُ لَـــــنْ تَرَاعِـــــي
إِنَّ مَعِـــــي ذِرَاعِـــــي إِنْ قُطِّعَـــــتْ كُرَاعِـــــي

فهي أبيات في غاية الوضوح والرقة، مع ما امتازت به من البلاغة، وحسن التعبير عن المعني بسهولة ييسر.

ومن ذلك قول الشاعر الطائي الأعرج:

وَتَشْـــكِي إِلَـــى جَارَتِهَـــا وَتَعِيْبُنِـــي فَقَالَـــتْ مَعَـــاذَ اللهِ أَنْكِـــحُ ذَا الرِّجَـــلِ
فَكَـــمْ مِـــنْ صَـــحِيْحٍ لَـــوْ يُـــوَازَنُ بَيْنَنَـــا لَكُنَّـــا سَـــوَاءً أَوْ لَمَـــالَ بِـــهِ حِمْلِـــي

فالفكرة في غاية الوضوح ، والألفاظ سهلة سلسة ، لا نجد فيها ألفاظًا غامضة.

وشبيه بذلك قول الصحابي عثمان بن مظعون في رثاء عينه:

فَـــإِنْ تَـــكُ عَيْنِـــي فِـــي رِضَـــا الـــرَّبِّ نَالَهَـــا يَـــدَا مُلْحِـــدٍ فِـــي الـــدِّيْنِ لَـــيْسَ بِمُهْتَـــدِ
فَقَـــدْ عَـــوَّضَ الـــرَّحْمَنُ مِنْهَـــا ثَوَابَـــهُ وَمَـــنْ يَرْضَـــهُ الـــرَّحْمَنُ يَـــا قَـــوْمِ يَسْـــعَدِ
فَـــإِنِّي وَإِنْ قُلْـــتُمْ غَـــوِيٌّ مُضَـــلَّلٌ سَـــفِيْهٌ عَلَـــى دِيْـــنِ الرَّسُـــولِ مُحَمَّـــدِ
أُرِيْـــدُ بِـــذَاكَ اللهَ وَالْحَـــقَّ دِيْنَنَـــا عَلَـــى رَغْـــمِ مَـــنْ يَبْغِـــي عَلَيْنَـــا وَيَعْتَـــدِي

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تـ محمد أبو الفضل وآخرون، مطبعة الحلبي، ط الرابعة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، صـ ١٧، ١٨.

فهذه الأبيات وغيرها أتت ألفاظها سهلة مألوفة تفصح عن المعنى في يسر، بدون إغراق أو تكلف، كما تجلت فيها العذوبة والسلاسة التي اتسم بها شعر صدر الإسلام عموما.

ومن نماذج شعر رثاء الأعضاء التي اتسمت **بالقوة والجزالة** قول هميم بن صعصعة بعد أن أصيب في رجله فعرج ورثاها قائلا:

أَعُوْذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ سُوْءِ الْعَرَجْ وَمِنْ خُمَاعٍ وَظُلَاعٍ وَعَرَجْ
إِنَّ الْقَنَاةَ بِالْفَتَى جِدُّ سَمَجْ وَكُنْتُ كَالظَّبْيِّ إِذَا الظَّبْيُ مَعَجْ[1]

فالأبيات تتسم بالقوة والجزالة، والتي وصلت فيها لغة الشاعر لدرجة الغموض واستخدام الغريب في بعض الألفاظ.

ومن نماذج الشعر التي اتسمت ألفاظها بالقوة والجزالة ، قول عمر بن أحمر الباهلي في رثاء عينه ، حين رماه رجل يقال له مخشي بسهم فذهبت بها:

غَادَرَنِي سَهْمُهُ أَعْشَى وَغَادَرَهُ سَهْمُ ابْنِ أَحْمَرَ يَشْكُو الرَّأْسَ وَالْكَبِدَا
شُلَّتْ أَنَامِلُ مَخْشِيٍّ فَلَا جَبَرَتْ وَلَا اسْتَعَانَ بِضَاحِي كَفِّهِ أَبَدَا
أَهْوَى لَهَا مِشْقَصًا حَشْرًا فَشَبْرَقَهَا وَكُنْتُ أَدْعُو قَذَاهَا الإِثْمِدَ القَرِدَا
أَعْشُو بِعَيْنٍ وَأُخْرَى قَدْ أَضَرَّ بِهَا رَيْبُ الزَّمَانِ فَأَمْسَى ضَوْؤُهَا خَمَدَا

هـ : الدقة والإيحاء :

ومن الظواهر اللغوية التي اتسم بها معجم الألفاظ في شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام، أن تأتي ألفاظ الشعر محملة بعدًا عاطفيًا انفعاليًا ، يتناسب والحالة

(1) والخُماع - بالضم -العرج ، والظلاع بالضم أيضا العرج وغمز في المشية، القناة العصا والمراد: العصا التي يستعين بها العرجان، والسَّمَج : مصدر سمِج بالكسر وهوالقبح، مَعَجَ الظبيُ : أسرع في عدوه.

التي تكتنف الشاعر، أو الموقف الذي يعبر عنه، وبالتالي تعطي جانبًا إيحائيًا بما تثيره في النفس من عواطف وخيالات ،وهو ما يدل على انتقائها بدقة... ومن ذلك قول الشاعر علباء بن جحش العجلي في رثاء أمعائه:

أَرْجُو بِهَا مِنْ رَبِّنَا ثَوَابَا قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ أُحْسِنُ الضِّرَابَا

فمع أن البيت جاء يتيمًا بسبب المقام الذي قيل فيه إلا أن مفرداته جاءت منتقاة بعناية فعبر أولا: بـ " أرجو" ولم يقل أتمنى لأن الرجاء هو تعلق القلب بحصول محبوب، ويوحي بمعاني الاستبشار بجود الله وكرمه وإحسانه، وهذا هو المراد في موقف الجهاد، كما أن الرجاء يكون مع بذل الجهد والتضحية والاجتهاد للحصول على الشيء وتحقيقه. وكذلك كان مُوَفّقًا في التعبير بصيغة المضارع في قوله: "أُحْسِنُ" وإن جاء في سياق الماضي ليفيد ثباته واستمراريته في الجهاد حتى آخر رمق من حياته، وكذلك كلمة "الضِرَاب" على وزن فِعَال مبالغة في الفعل.

ومن الألفاظ التي اختارها الشاعر، وكرر استخدامها لما تحمله من معان ،موحية بمعاني الصورة الحركية لفظة "حتى" في قول الشاعر:

وَلَمْ يَبْغِ إِذْ سَأَلُوا النَّبِيَ سِوَاءَنَا ثَلَاثَتَنَا حَتَّى حَضَرْنَا الْمُنَادِيَا

....

فَمَا بَرِحَتْ أَقْدَامُنَا مِنْ مَقَامِنَا ثَلَاثَتِنَا حَتَّى أُزِيْرُوا الْمَنَائِيَا

من المعلوم في اللغة أن معاني "حتى" تتعدد تبعا لنوعها والسياق الذي ذكرت فيه، وقد أفادت انتهاء الغاية، كما تضمنت معاني العزة والاعتداء بالذات، ونفي الخوف أو التردد، وكذلك سرعة الاستجابة لدعاء الرسول...

وفي قول عبد الله بن سبرة الحرشي في رثاء يده :

يَمْشِي إِلَى مُسْتَمِيْتٍ مِثْلِهِ بَطَلٍ حَتَّى إِذَا أَمْكَنَا سَيْفَيْهِمَا امْتَصَعَا

فهو يصور ما كان عليه من جلد وشجاعة في مواجهة خصمه، فتأتي كل كلمة بإيحائها، بعد أن انتقاها بعناية لتعبر عن المعنى أبلغ تعبير، فلفظة "يمشي" ويقصد بها

الخصم توحي بإقبال العدو عليه متعمدا الفتك به، ثم يعبر عن عدم رهبته لهذا المشهد وإصراره هو الآخر على قتله بكلمة "مستميت"، وكلمة "مثله" جاءت دقيقة جدا في مكانها بما وصمت به كلا الطرفين من معاني الشجاعة والبطولة، وحرص كل واحد على الانتصار لقومه والفتك بخصمه، وهو ما جعل الأمر صعبا، ويؤيد هذا المعنى قوله في الشطر الثاني حتى إذا أمكنا سيفهما امتصعا، أي ابتعدا وهي كلمة مصورة للمعني أي إذا التحما حاول كل واحد منهما أن يبتعد شيئا عن صاحبه ليتمكن منه ويعاجله بضربه.

وفي تصوير حجم المعاناة التي يعانيهما كل منهما يقول:

كُلٌّ يَنُوْءُ بِمَاضِي الْحَدِّ ذِي شُطَبٍ جَلَّى الصَّيَاقِلُ عَنْ ذَرِّيِّه الطَّبَعَا

فكل لفظة في هذا البيت وضعت في مكانها بعناية لتساعد على تصوير المعني في أبهى وأتم صورة، فكل منهما كان مستعدا للقاء صاحبه فأصقل سيفا أصيلا، حتى جعله ماضي الحد قاطعا، كما راعى شكله أو مظهره الخارجي فنفى عنه كل خبث حتى كان متنه أبيضا مشرقا متلألأ.

رابعا : الأسلوب :

دائما ما يبحث الشاعر عن الطريقة المُثلى التي ينقل من خلالها تجربته للمتلقين، ومن ثم فهو يختار نمطه التعبيري بعناية حتى يستوعب المعنى أو التجربة الشعورية التي انفعل بها ويريد إخراجها للمتلقين، وتلك الطريقة أو هذا النهج هو الأسلوب الذي عرفه أحد النقاد بقوله: "هو الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره ،ويبين بها عمّا يجول في نفسه من العواطف والانفعالات"(١).

ودراسة الأسلوب والوقوف معه بشيء من التحليل يؤدي دورا مهما في فهم النص، والتعرف على الحالة الوجدانية لقائله ومحاولة ثبر ما بداخله من مشاعر وأحاسيس دفينة أراد أن يعلنها من خلال إنتاج نصه، لذا نرى الشاعر يُنَوّعُ أساليبه حسب المعنى ، والحالة الشعورية التي تكتنفه ، أو الفكرة التي يعالجها.

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب، د/ أحمد بدوي، (م، س)، صـ ٤٥١.

وبعد تأمل شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام، والوقوف على أساليب التعبير فيه، تبين أن هؤلاء الشعراء نوّعوا في استخدام أساليبهم المعبرة عن معانيهم، والتي جاءت في الأنماط الأسلوبية الآتية :

أ : **التكرار : وهو** من المظاهر الأسلوبية الغالبة في شعر رثاء الأعضاء بمعناه المعروف من " إعادة ذكر كلمة، أو عبارة بلفظها ومعناها في موضع آخر، أو مواضع متعددة من نص أدبي واحد"،[1] واهتمام النقاد بالوقوف مع هذه الظاهرة الأسلوبية بالدرس يرجع إلى قيمته الفنية التي ذكرها بعض النقاد في كونه "يساعد على تعميق الجو العاطفي وعلى تعميق الجو الفني لأن فيه مضاعفة للنغم وتقوية للمعنى..."،[2] وقد أخذ التكرار نصيبًا ملحوظًا في شعر رثاء الأعضاء، كما جاءت تشكيلاته الفنية في صور متعددة نقف مع بعضها في السطور الآتية:

تكرار كلمة كما جاء في قول أحد إخوة بني كاهل في رثاء رِجْلِه:

صَبْرًا عِقَاقُ إِنَّهَا الْأَسَاوِرَه صَبْرًا وَلَا تَذْعُرْكَ رِجْلٌ نَادِرَه

فكرر كلمة "صَبْرًا" في شطري البيت، وهو مصدر ناب مناب فعله بما يوحي معناه من النصح والدعوة للثبات وشحذ همم المجاهدين، إضافة لما أفاده من الإيجاز.

ومن **نماذج تكرار كلمة**، تكرار كلمتي (نذود، وأنشد) في قول الشاعر السليك العقيلي في رثاء يده :

كَيْفَ تَرَانِي وَأَخِي عُطَارِدَا نَذُوْدُ مِنْ حَنِيْفَةَ الْمَذَاوِدَا
نَذُوْدُ مِنْهُمْ سِرْعَانًا وَارِدَا أَنْشُدُ كَفًّا ذَهَبَتْ وَسَاعِدَا
أَنْشُدُهَا وَلَا أُرَانِي وَاجِدَا إِلَّا فَتًى يَسْقِي شَرَابًا بَارِدَا

---

(1) البحث البلاغي عند العرب ، د/ شفيع السيد، ط دار الفكر العربي (القاهرة) ١٩٩٦م، صـ ٢١٢.

(2) دراسات في النص الشعري (العصر الحديث) ، د/ عبده بدوي، ط دار قباء (القاهرة) ١٩٩٧م، ص ١٦٩.

وتكرار كلمة (الرحمن) في قول عثمان بن مظعون في رثاء عينه:

فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ وَمَنْ يَرْضَهُ الرَّحْمَنُ يَا قَوْمِ يَسْعَدِ

وهو ما يظهر تعلق الشاعر بعقيدته وإيمانه الذي ضحى من أجله، كما تشير إلى حضور المعجم الإسلامي في شعر رثاء الأعضاء.

ومن صور التكرار تكرار الاسم المضمر بما تضمن من معاني الفخر، تكرار الضمير(نا) متصلا بـ "من"، في قول الشاعر سوار بن أوفى مفتخرا بشجاعة أخيه الذي ضحى برجله في إحدى غزوات الإسلام:

وَمِنَّا ابْنُ عَتَّابٍ وَنَاشِدُ رِجْلِهِ وَمِنَّا الَّذِي أَدَّى إِلَى الْحَيِّ حَاجِبَا

ومن **ألوان التكرار** في شعر رثاء الأعضاء، **تكرار جملة** كما في قول عبد الله بن سبرة في رثاء يده:

فَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُونُ الرُّوْمِ قَطَّعَهَا فَقَدْ تَرَكْتُ بِهَا أَوْصَالَهُ قِطَعَا

وَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُونُ الرُّومِ قَطَّعَهَا فَإِنَّ فِيْهَا بِحَمْدِ اللهِ مُنْتَفَعَا

فالتكرار يوحي بحجم المعاناة والمأساة التي يحاول الشاعر التخفيف من وطأتها، مع ما تضمنه من معنى الشرط واقتران الجواب بالفاء في البيتين، وإظهار معاني الرضا والتسليم.

ومن ألوان التكرار تكرار أسلوب كتكرار أسلوب التعجب في قصيدة عبد الله ابن سبرة في رثاء يده فيأتي به مرة في مطلع القصيدة، وأخرى في البيت الثامن يقول:

وَيْلُ أُمِّ جَارٍ غَدَاةَ الرَّوْعِ فَارَقَنِي أَهْوِنْ عَلَيَّ بِهِ إِذْ بَانَ فَانْقَطَعَا

.....

وَيْلُ امِّهِ فَارِسًا أَجْلَتْ عَشِيْرَتُه حَامِي، وَقَدْ ضَيَّعُوا الْأَحْسَابَ فَارْتَجَعَا

نلحظ أن أسلوب التعجب له أثره على التجربة بما يحمله من معاني الدهشة، مع ما تضمنه في هذا السياق من معاني التهويل وتكثيف الصورة حسب المعنى والفكرة.

ومن نماذج تكرار أسلوب تكرار أسلوب التمني كما في قول بشر بن العسوس في رثاء عينه :

أَلَا لَيْتَ عَيْنِي هَذِهِ مِثْلُ هَذِهِ ... وَلَمْ أَمْشِ فِي الْأَحْيَاءِ إِلَّا بِقَائِدِ
وَيَا لَيْتَ رِجْلِي ثُمَّ طُنَّتْ بِنِصْفِهَا ... وَيَا لَيْتَ كَفِّيْ ثُمَّ طَاحَتْ بِسَاعِدِ[1]
وَيَا لَيْتَنِيْ لَمْ أَبْقَ بَعْدُ مُطَرِّفٍ ... وَسَعْدٍ وَبَعْدُ الْمُسْتَنِيْرِ بْنِ خَالِدِ

فتكرار أداة التمني بهذه الصورة بما تحمله من معنى استحالة تحقق الأمر، يصور للمتلقين ما أصاب الشاعر بعد فقد عينه من ألم، ومدى إلحاحه على أمنية يعلم يقينًا عدم حصولها.

ومن صور تكرار الأسلوب، تكرار أسلوب الاستفهام في قول علي بن أبي طالب في رثاء عين عثمان بن مظعون:

أَمِنْ تَذَكُّرِ دَهْرٍ غَيْرَ مَأْمُوْنِ ... أَصْبَحْتَ مُكْتَئِبًا تَبْكِي كَمَحْزُوْنِ
أَمِنْ تَذَكُّرِ أَقْوَامٍ ذَوِي سَفَهٍ ... يَغْشَوْنَ بِالظُّلْمِ مَنْ يَدْعُو إِلَى الدِّيْنِ

ب: تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء :

من الظواهر الأسلوبية التي غلبت على شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام تنوعها بين الأساليب الخبرية والأساليب الإنشائية، وإن غلبت عليها الأساليب الخبرية، ومرجع ذلك التنوع اختلاف الفكرة أو المعنى، فهناك ما يناسبه أسلوب الخبر بما يحمله من معان جمالية متعددة، أو ما يتطلبه أسلوب الإنشاء بتشكيلاته الفنية، ولكل دوره في التعبير عن التجربة والعمل الأدبي والإسهام في عملية إبراز المشاعر للمتلقي.

---

(1) طُنَّتْ : أي قلعت وسقطت .

فمن **أولى الأساليب** التي عبرت عن المعاني في شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام **الأسلوب الخبري** بما يحمله من معان كالتقرير، وتقوية المعنى، والتأكيد، وما يتضمنه من معان أخرى يظهرها السياق كالفرح، أو الحزن، أو الاسترحام، أو إظهار الأسف والحسرة... وغير ذلك، كما يأتي الأسلوب الخبري تقريريا خاليا من المؤكدات، أو مؤكدا بإحدى المؤكدات حسب ما تطلبه التجربة.

فمن صور الأسلوب الخبري التقريري الخالي من المؤكدات في شعر رثاء الأعضاء قول عبيدة بن الحارث في رثاء رجله مخبرا عن عظم الجزاء والثواب:

وَبِعْتُ بِهَا عَيْشًا تَعَرَّقْتُ صَفْوَهُ وَعَالَجْتُهُ حَتَّى فَقَدْتُ الْأَدَانِيَا
فَأَكْرَمَنِي الرَّحْمَنُ مِنْ فَضْلِ مَنِّهِ بِثَوْبٍ مِنَ الْإِسْلَامِ غَطَّى الْمَسَاوِيَا

فالبيت صدحة مسلم صادق، وجهرة مؤمن موقن، أراد أن يعلن من خلاله حسن يقينه، بل ويظهر فرحه واستبشاره بما مَنَّ الله به عليه من فضل وحسن مثوبة بعد اعتناق الإسلام، فاتكأ على أسلوب الخبر التقريري الخالي من المؤكدات، وما هذا إلا لأنه مسلم صادق المشاعر صادق التجربة فلم يحتج إلى دليل ليقوي به كلامه... هذا مع ما يحمله الأسلوب من معاني الفخر بالإسلام وإبراز معاني العزة، وعدم الهون أو الحزن أمام إيذاء المشركين في ذلك الوقت.

ومن صور الأسلوب الخبري المؤكد بـ (إن) قوله في القصيدة نفسها:

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ أُرَجِّي بِهَا عَيْشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا

فالشاعر يعبر عن فكرته هذه المرة بالأسلوب الخبري المؤكد لأن المعنى يتطلب ذلك، فمادام الأمر يصور معنى التحدي والموقف موقف إظهار القوة والتسربل بمعاني العزة، فما نال أعداؤه منه شيء حتى ولو قطعوا رجله لماذا؟ لأنه مسلم! والمسلم له حياة غير هذه.

ومن نماذج الخبر المؤكد بـ (إن) قول الشاعر حكيم بن جبله حينما قطعت رجله فاستهان بها، مظهرا معاني الشجاعة محتسبا ثوابها، ومفتخرا بما أبقاه الله له من نِعَمٍ يقوى من خلالها على المواجهة، واستمراره في الجهاد:

إِنَّ مَعِي ذِرَاعِي إِنْ قُطِّعَتْ كُرَاعِي

فهو يخير أن ذراعه بقيت له سالمة لم يصبها شيء، وهي التي يستطيع من خلالها أن يحمل عُدة الجهاد، ويبدو أنه أراد أن يُثَبِتَّ نَفْسَه حتى لا تخور قوه أو تفل عزمه، لذا ساق أسلوب الخبر مؤكدا بـ(إنَّ).

ومن نماذج الخبر المؤكد بـ (قد) قول الشاعر علباء بن جحش العجلي :

أَرْجُو بِهَا مِنْ رَبِّنَا ثَوَابَا قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ أُحْسِنُ الضِّرَابَا

فالبيت ترنيمة مؤمن يقف على حافة الشهادة واستقبال الدار الآخرة، فبعد أن طعن في بطنه وبرزت أحشاؤه أمامه، وأيقن أنه ميت لا محالة، فعبر عن تجربته بأصدق ما يمكن أن يعبر شاعر، فجاء الشطر الأول خبر يحمل معنى الإنشاء (الدعاء)، فها هو يقدم نفسه صفقة رابحة لله رب العالمين راجيا أن ينال ثوابها، ثم يأتي الشطر الثاني وفيه يفخر بما قدم من تضحيات، وفيه إشارة لسيرة طويلة عامرة بالبذل تضمنت في طياتها معنى الفخر، فجاء بالخبر مؤكدا بقد والتي تفيد التحقيق.

ومن صور الخبر المؤكد بقد قول عبد الله بن سبرة في رثاء يده :

وَمَا ضَنِنْتُ عَلَيْهَا أَنْ أُصَاحِبَهَا لَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى أَنْ نَسْتَرِيْحَ مَعَا

فالشاعر هذه المرة يظهر أسفه على قطع يده، كما أراد أن يظهر للمتلقين شدة تعلقه بها لدرجة حرصه أن يلحقها بالموت لينال الشهادة، كما يلمح ضمنيا لعظم التضحية التي قدمها فأكد المعنى بـ قد.

أسلوب القصر :

يرجع النقاد أسلوب القصر لأسلوب الخبر فهو لون من ألوان التعبير بالأسلوب الخبري، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من دور في تقوية المعنى والعمل على تمكينه من النفس لأن "جملة القصر في قوة جملتين، فيقصد به تمكين الكلام وتقريره في الذهن لدفع ما فيه إنكار وشك"(١)، ولهذا الأسلوب طرق منها النفي والاستثناء، وهو أحد التشكيلات الفنية التي وردت في شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام ومن ذلك قول الشاعر السليك العقيلي في رثاء يده:

..... أَنْشُدُ كَفًّا ذَهَبَتْ وَسَاعِدَا

أَنْشُدُهَا وَلَا أُرَانِي وَاجِدَا إِلَّا فَتًى يَسْقِي شَرَابًا بَارِدَا

أراد الشاعر أن يصور حجم المأساة بعد فَقْدِ يده، فقد طاحت في أرض المعركة فكأنَّه أخذ يتفقدها كما يتفقد الواحد القتلى أو أحد أقربائه بعد أن تنتهي المعركة، ولكنه لم يعثر عليها! وفيه إيحاء بعدم إمكانية ردها أو إعادتها كما كانت حتى لو وجدها، فاستعان الشاعر للتعبير عن هذا المعنى بأسلوب القصر وطريقته النفي بـ (لا) النافية، والاستثناء بـ (إلا) ليقوي المعنى ويؤكده في النفس إضافة لما أفاده الأسلوب الخبري من معاني الأسف والحسرة.

ومن نماذج أسلوب القصر وطريقته النفي والاستثناء قول بشر بن العسوس في رثاء عينه:

أَلَا لَيْتَ عَيْنِي هَذِهِ مِثْلُ هَذِهِ وَلَمْ أَمْشِ فِي الْأَحْيَاءِ إِلَّا بِقَائِدِ

يبدو أن ألم فقد الشاعر عينه ووقعه على نفسه كان كبيرًا، لدرجة جعلته أن يتمنى لو فقد الأخرى فيكون أعمى بدلا من أن يكون أعورًا، فوظف لهذا المعنى أسلوب القصر

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، تـ : عبد المتعال الصعيدي، ط صبيح (القاهرة)، ط الثانية (دـ ت)، جـ ٢، صـ ٣ .

بما يحمله من دلالات شعورية تحمل معنى الأسف والحسرة على فقد محبوب، فساعد الأسلوب على التعبير عن التجربة وإيصالها للمتلقين في أبها صورة.

أسلوب الشرط وجوابه :

أحد الأنماط الأسلوبية التي عدها النقاد من ألوان التعبير بالأسلوب الخبري، وتظهر جماليته فيما يثيره في نفس القارئ والسامع من التلهف وإحداث انجذاب لتعلق النفس بمعنى الشرط وارتقاب جوابه لتمام الفكرة، وهو أحد الأساليب التي برزت في شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام. ويظهر ذلك في قول عبيدة بن الحارث بن المطلب حين قطعت رجله يوم بدر فرثاها قائلا:

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ أُرَجِّي بِهَا عَيْشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا

كما اتكأ عبد الله ابن سبرة على أسلوب الشرط في رثاء يده في قوله :

فَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُونُ الرُّوْمِ قَطَّعَهَا فَقَدْ تَرَكْتُ بِهَا أَوْصَالَهُ قِطَعَا

وَإِنْ يَكُنْ أَطْرَبُونُ الرُّومِ قَطَّعَهَا فَإِنَّ فِيْهَا بِحَمْدِ اللهِ مُنْتَفَعَا

ومن توظيف أسلوب الشرط وجوابه قول الصحابي عثمان بن مظعون في رثاء عينه:

فَإِنْ تَكُ عَيْنِي فِي رِضَا الرَّبِّ نَالَهَا يَدَا مُلْحِدٍ فِي الدِّيْنِ لَيْسَ بِمُهْتَدِ

فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ وَمَنْ يَرْضَهُ الرَّحْمَنُ يَا قَوْمِ يَسْعَدِ

فَإِنِّي وَإِنْ قُلْتُمْ غَوِيٌّ مُضَلَّلٌ سَفِيْهٌ عَلَى دِيْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ

أُرِيْدُ بِذَاكَ اللهَ وَالْحَقَّ دِيْنَنَا عَلَى رَغْمِ مَنْ يَبْغِي عَلَيْنَا وَيَعْتَدِي

والأسلوب في الأبيات السابقة يحمل معاني التحدي للمشركين، التحدي المنبثق من عزة المسلم بدينه وثقته بربه.

الأساليب الإنشائية :

أسلوب الإنشاء صنو أسلوب الخبر في التعبير عن التجربة أو الفكرة المتغياة وللشاعر أن يعبر عن المعنى بأي الأسلوبين الذي يراه مناسبا لمشاعره وأحاسيسه، لذا وجد أسلوب الإنشاء في شعر رثاء الأعضاء بنوعيه الطلبي بصوره المختلفة وأدواته المتجددة الموحية من استفهام، ونداء، ونهي، وأمر، وغير الطلبي بأدواته الجمالية كـ رُبَّ ، وكم الخبرية، وألَا التي تفيد الحث والحض... فمن نماذج ورود الأدوات الفنية للإنشاء الطلبي في شعر رثاء الأعضاء :

أ: الاستفهام : ويظهر في قول ابن سبرة وهو يصور لقاءه الحتمي بخصمه، ويستبعد فكرة عدم لقائه أو الفرار منه ردا على من عاتبه في مواجهته وقتاله، وهو ما تسبب في قطع يده يقول:

وكَيْفَ أَرْكَبُهُ يَسْعَى بِمُنْصُلِهِ نَحْوِي وَأَعْجَزُ عَنْهُ بَعْدَ مَا وَقَعَا؟!(١)

وظف الشاعر أسلوب الاستفهام بكيف والتي أوحت شعوريا بمعنى التعجب، ويجوز أيضا أن تحمل سياقيا معنى الإنكار، فعبر عن فكرته أتم تعبير كما خدم المعنى وأعان على إيصال التجربة.

ومن نماذج أسلوب الاستفهام قول الشاعر السليك العقيلي في معرض المدح بشجاعته وأخيه في المعركة التي قطعت فيها يده :

كَيْفَ تَرَانِي وَأَخِي عُطَارِدَا نَذُوْدُ مِنْ حَنِيْفَةَ الْمَذَاوِدَا؟

ولعل أبرز صور الاستفهام وأبلغها وقعًا في النفس ،الاستفهام بالهمزة في بيتين متتاليين في المقطوعة الشعرية التي رثى فيها الصحابي الجليل علي بن أبي طالب عين عثمان بن مظعون، وتوعد فيها كفار قريش بالثأر لأخيه المسلم:

أَمِنْ تَذَكُّرِ دَهْرٍ غَيْرَ مَأْمُوْنِ أَصْبَحْتَ مُكْتَئِبًا تَبْكِي كَمَحْزُوْنِ؟
أَمِنْ تَذَكُّرِ أَقْوَامٍ ذَوِي سَفَهٍ يَغْشَوْنَ بِالظُّلْمِ مَنْ يَدْعُو إِلَى الدِّيْنِ؟

(١) أركبه : أتركه . بمنصله : المنصل السيف والجمع مناصل .

فالهمزة للاستفهام الذي يوحي سياقيًا بالكثير من المعاني، فهي تشع بجوٍّ مشحونٍ بالأسى والحزن والغضب؛ لما آل إليه حال المسلمين في فترة الاستضعاف في مكة المكرمة، وما لاقوه من إيذاء... ومن ثم جاء الأسلوب الإنشائي باستخدام الاستفهام بما يحمله من دلالات شعورية فعبر عن التجربة أتمّ تعبير.

ب: النداء : من صور الأساليب الإنشائية التي وردت في شعر رثاء الأعضاء، ويمثل ذلك قول الصحابي عثمان بن مظعون في رثاء عينه موجها نصحه إلى قومه:

فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ وَمَنْ يَرْضَهُ الرَّحْمَنُ يَا قَوْمِ يَسْعَدِ

نداء الشاعر على قومه نداء نصح وتوجيه وإقرار بالإيمان، وتصديق بما أخبر به النبي الأمين، وصوره لثبات المؤمن وشدة يقينه.

ومن ألوان النداء باستخدام "يا" والتي امتزجت بالتمني باستخدام ليت، وجاء في ثلاث دفقات شعرية متتالية ، قول الشاعر بشر بن العسوس في رثاء عينه:

وَيَا لَيْتَ رِجْلِي ثُمَّ طُنَّتْ بِنِصْفِهَا وَيَا لَيْتَ كَفِّيْ ثُمَّ طَاحَتْ بِسَاعِدِ
وَيَا لَيْتَنِيْ لَمْ أَبْقَ بَعْدُ مُطَرِّفٍ وَسَعْدٍ وَبَعْدُ الْمُسْتَنِيْرِ بْنِ خَالِدِ

فأسلوب النداء في البيتين لم يأت على حقيقته وهو طلب الإقبال، وإنما جاء مصورًا لما تحمله النفس من مشاعر، مصورًا لجانب المأساة، وكأن هناك شعورًا داخليًا ، أو صوتًا خفيًا ينادي عليه الشاعر ليُسِرَّ إليه بأمنيته ، والتي يرى أنها مستحيلة الحدوث ،فاستخدم لذلك ليت كما أشرت من قبل.

ج: الأمر : جاء أسلوب الأمر في شعر رثاء الأعضاء بوصفه أداة تساعد على التعبير عن المشاعر والأحاسيس الكامنة في النفس، ويظهر ذلك في قول ناشد رجله وهو يحث فرسه (حذام) على الإقدام:

أَقْدِمْ حَذَامُ إِنَّهَا الْأَسَاوِرَه وَلَا تَغُرَّنَّكَ رِجْلٌ نَادِرَهْ

فالبيت صورة رائعة من صور حسن توظيف الشاعر للأساليب الإنشائية؛ لأنه اعتمد على الأمر والنداء المحذوف الأداة في قوله: **(حذَامُ)** أي يا حذام، والنهي في قوله: **(وَلَا تَغُرَّنَّكَ)** في بيت واحد، وهو ما يثبت توفيق الشاعر في اختيار ألفاظه وأساليبه بعناية، استطاع من خلالها أن يخدم فكرته ويبرز المعنى في أتم صورة .

د: النهي : أشرت إلى أسلوب النهي في النموذج السابق في الأمر، ومن نماذجه الأخرى في شعر رثاء الأعضاء قول أحد أخوة بني كاهل:

صَبْرًا عِفَاقُ إِنَّهَا الْأَسَاوِرَه صَبْرًا وَلَا تَذْعُرْكَ رِجْلٌ نَادِرَه

فالبيتان قريبان في تناول المعنى والفكرة وفيهما أمر ونهي أيضا فالأمر تمثل في المصدر النائب مناب فعله اصْبِرْ صَبْرًا، والنهي في قوله: لا تذعرك فقد نهي عن الفزع أو الخوف الذي يؤول بصاحبه إلى الفرار وحث على الثبات والإقدام.

ومن التشكيلات الجمالية لأساليب الإنشاء غير الطلبي في شعر رثاء الأعضاء:

التعجب : وقد سبقت الإشارة إليه في توظيف تكرار الأسلوب في قول عبد الله بن سبرة، في رثاء يده "ويل ام جار..." ، وهو تعجب سماعي، عاون الشاعر في التعبير عن معاناته وتصوير مأساته.

القسم : كما في قول الصحابي الضحاك بن خليفة في رثاء رجله:

كَادَتْ وَبَيْتِ اللهِ نَارُ مُحَمَّدٍ يَشِيْطُ بِهَا الضَّحَاكُ وَابْنُ أُبَيْرِق

أكد الشاعر معانيه باستخدام أسلوب القسم، والبيت فيه تصوير وتأكيد لمعاناته.

كم الخبرية : وردت بمعناها الإيحائي في رثاء الشاعر الطائي الأعرج رجله وشكوى حاله:

فَكَمْ مِنْ صَحِيْحٍ لَوْ يُوَازَنُ بَيْنَنَا لَكُنَّا سَوَاءً أَوْ لَمَالَ بِهِ حِمْلِي

صور الشاعر معاناته من خلال محاولة إحداث مقارنة بينه وبين غيره من الأصحاء، فاستخدم لذلك كم الخبرية التي تفيد الكثرة ليعلي من شأن نفسه ويظهر قدره ومكانته، وفي الوقت نفسه يلمح لما جرته عليه إصابته في يده.

رُبَّ : جاءت في رثاء الشاعر عمرو بن أحمد الباهلي **(رُبَّ)** عينه في قوله:

وَرُبَّـــتَ سَـــائِلٍ عَنِّـــي حَفِـــيٍّ أَعَـــارَتْ عَيْنُـــهُ أَمْ لَـــمْ تَعَـــارَا[1]

ومن ألوان استخدام رُبَّ في رثاء الأعضاء أن تأتي محذوفة بعد الواو التي تسمى بواو رُبَّ وهي تختص بالدخول على النكرة، وذلك كما في قول عبد الله ابن سبرة في رثاء يده، يقول:

وَقَائِـــلٍ غَـــابَ عَـــنْ شَـــأْنِي وَقَائِلَـــةٍ هَلَّـــا اجْتَنَبْـــتَ عَـــدُوَّ اللهِ إِذْ صُـــرِعَا

وألحظ أن الشاعر وظف أيضا هَلَّا التي هي للحض والحث على فعل الشيء، وجاءت في سياقها في البيت بغرض النصح والإرشاد، وهي إحدى أساليب الإنشاء غير الطلبي أيضا.

أَلَا : ورد توظيف ألا الاستفتاحية والتي تحمل معاني الانتباه، والتحذير والحض وغير ذلك في شعر رثاء الأعضاء كما في قول الصحابي علي بن أبي طالب:

أَلَـــا تَـــرَوْنَ - أَقَـــلَّ اللهُ خَيْـــرَهُمُ - أَنَّـــا غَضِـــبْنَا لِعُثْمَـــانَ بـــنِ مَظْعُـــوْنِ

فاستخدم ألا للتنبيه والالتفات إلى فداحة الخطب، كما أوحت بمعنى الوعيد والتهديد، كما ألحظ أنه زواج في بيته بين ألا والجملة الاعتراضية –أقل الله خيرهم– التي أفادت معنى الدعاء على الخصم.

ظواهر أسلوبية أخرى: ورد في شعر رثاء الأعضاء بعض الظواهر الأسلوبية التي تتصل بالبديع منها:

---

(1) السائل الحفي : المستقصي في السؤال، وعارت : زالت.

أ – **الاقتباس من القرآن الكريم :** فالتأثر بالروح والتعاليم الإسلامية المنبثقة من كتاب الله، وسنة رسول الله (ﷺ) سمة غالبة على الشعر في عصر صدر الإسلام، وقد أشـرت إلـى ذلك عند الحديث عن سمات شعر رثاء الأعضاء، وبالتالي فليس بمستغرب أن نجد اقتباس بعض الألفاظ القرآنية في شعر رثاء الأعضاء، ومن ذلك ما جاء في قول الصحابي عبيدة بن الحارث في رثاء رجله :

فَـــإِنْ تَقْطَعُـــوا رِجْلِـــي فَـــإِنِّي مُســـلِمٌ أُرَجِّـــي بِهَـــا عَيْشًـــا مِـــنَ اللهِ دَانِيَـــا

فمجيء لفظة إني مسلم في البيت السابق بهذه الروح المقرونة بالفخر والعزة والتحدي مقتبس من قوله تعالى﴿ ...فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ٦٤)، وظاهر من البيت روح التأثر بمعاني الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي تتضمن معاني الجهر بالدين الإسلامي وإعلان اسمه على سبيل الفخر بالمعتقد .

كما ورد أسلوب الاقتباس في قول الشاعر الطائي الأعرج:

وَتَشْـــكِي إِلَـــى جَارَتِهَـــا وَتَعِيْبُنِـــي فَقَالَـــتْ مَعَـــاذَ اللهِ أَنْكِـــحُ ذَا الرِّجَـــلِ

اقتباس في أول الشطر الثاني من قولـه تَعَالَىٰ:﴿ ...قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١).

ب : الطباق : أحد الأساليب البديعية الجمالية التي وردت في شعر رثاء الأعضاء، وقـد جاء طبيعا يخدم الفكرة، ويساعد في إيضاح المعنى وترجمة المشاعر والأحاسيس، ونجـد ذلك في قول حكيم بن جبلة في رثاء رِجْلِه :

إِنَّ مَعِـــــــــي ذِرَاعِـــــــــي إِنْ قُطِّعَـــــــــتْ كُرَاعِـــــــــي

(١) سورة يوسف من الآية رقم : ٢٣ .

فطابق بين الذراع والكراع – وهو ما دون الركبة إلى الكعب، ويقصد به هنا رجله – وهو بذلك يستحث في نفسه الهمة، ويظهر معاني الرضا والعوض، ونلحظ أن الطباق جاء طيعا غير متكلف يخدم الفكرة التي يريد أن يعبر عنها ويوضح المعنى بالتضاد.

ومن صور الطباق قول الشاعر حياض بن قيس بعد أن قطعت رجله في معركة اليرموك:

أَنَا الْقُشَيْرِيُّ أَخُو المُهَاجِرَه أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رُؤُوْسَ الْكَافِرَه

فالتقابل هنا تقابل خفي بين المهاجرة وهم المؤمنون، والكافرة لأن الهجرة تستلزم الإيمان، وهذا اللون من أجمل صور الطباق لخفائه ودقته، وأثره في التعبير عن المشاعر والأحاسيس .

وشبيه بهذا اللون قول عبد الله بن سبرة الحرشي في رثاء يده:

وَكَيْفَ أَرْكَبُهُ يَسْعَى بِمُنْصُلِهِ نَحْوِي وَأَعْجَزُ عَنْهُ بَعْدَ مَا وَقَعَا

فطابق بين يسعى لتصوير إصرار الخصم على الفتك به، وأعجز بمعنى أفر وأترك المواجهة التي فُرضت عليه وكان لابد منها.

ومن صور تشكيلات الطباق الجمالية في رثاء اليد قول أحد اللصوص حين أمر بقطعها:

فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَكَانَتْ حَبِيْبَةً إِذَا مَا شِمَالِي فَارَقَتْهَا يَمِيْنُهَا

فطابق بين لفظتي (شمالي، يمينها) ليعبر عن مأساته بعد أن تقطع يده اليمنى ويصبح بيد واحدة لا تقوى على إعانته في الحياة.

ج :**الجناس** : وورد ضمن الأساليب البديعية في شعر رثاء الأعضاء بقلة للتعبير عن المعاني والإفصاح عن المشاعر وتشكلت صورته في تماثل بعض الألفاظ والحروف التي جاءت مكررة لإحداث تناغم صوتي، وتوشية الألفاظ بجرس يؤثر في المتلقي ويعمل على جذبه وتملك مشاعره.

ومن أمثلته ما جاء بين لفظتي (العليا، وعاليا) في قول عبيدة بن الحارث في رثاء رجله:

..... **مَعَ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا لِمَنْ كَانَ عَالِيَا**

وكذلك بين لفظتي (دعا، وداعيا) للشاعر نفسه في قوله:

..... **غَدَاةَ دَعَا الْأَكْفَاءُ مَنْ كَانَ دَاعِيَا**

ومنه ما وقع بين لفظتي (نذود، المذاودا) في قول الشاعر السليك العقيلي في رثاء يده:

..... **نَذُودُ مِنْ حَنِيْفَةَ الْمَذَاوِدَا**

وجمال هذا اللون البديعي في رثاء الأعضاء يكمن في كونه جاء سمحا عفو الخاطر، لا تظهر عليه أمارة التكلف، ومن ثم فقد خدم التجربة بما أحدثه من مناسبة الألفاظ وحمل المخاطب على الإصغاء...

خامسا : الصورة الشعرية :

تعد الصورة الشعرية أبرز السمات الفنية التي يتميز بها الشعر، إذ هو تعبير مبني على التصوير وضرب من التخييل، وبالصورة يتفاضل شعر عن شعر وشاعر عن آخر، والصورة "هي المادة التي تتركب من اللغة بدلالاتها اللغوية والموسيقية، ومن الخيال الذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية..."[1]، وتبرز قيمة الصورة كلما علقت "بتجربة الشاعر، تجسد فكره أو عاطفته، وذات صلة قوية بالمشاعر التي تسيطر على القصيدة، وتصبح جزءًا منها"[2].

(1) أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، النهضة المصرية (القاهرة)، ط الثامنة ١٩٧٣م، صـ ٢٤٨.

(2) الشعر العربي المعاصر روائعه ومدخل لقراءته، د/ الطاهر مكي، دار المعارف، ط الثانية ١٩٨٣، صـ ٨٣.

وتنوع استخدام الصورة يرجع إلى المقدرة الفنية للشاعر من حيث حسن توظيف التشكيل بالصورة قديمة وحديثة حسب ثقافته وبيئته، والعصر الذي قيل فيه الشعر...إلخ، فهناك من يعتمد على الصورة التراثية القديمة من تشبيه، واستعارة، وكناية... وهناك من ينتقل إلى التصوير باللون أو الصوت أو الحركة أو الرمز...إلخ .

ولأن شعر رثاء الأعضاء الذي يدور حوله البحث يتناول فترة معينة من مسيرة الشعر العربي في ظل عصر صدر الإسلام، وهي الحقبة التي تعبر عن اللغة بأفضل أساليبها متانة وإحكام نسج وصفاء قريحة وحسن تخييل، فإن الصور التي وردت في شعر رثاء الأعضاء تمثلت في الصورة التراثية كالصورة البيانية وغيرها من الصور القديمة، وهو ما سوف أقف معه – بإيجاز– في السطور الآتية:

أ: الصورة التشبيهية: زخر شعر رثاء الأعضاء بروائع من الصور البيانية أظهرها الصورة التشبيهية بوصفها "علاقة بين طرفين متمايزين لاشتراك بينهما في الصفة نفسها، أو في حكم لها ومقتضى"،[1] ينتج عنها قيما جمالية، وإيحائية شعورية... ومن نماذجها في شعر رثاء الأعضاء قول الشاعر عبيدة بن الحارث الصحابي الجليل في رثاء رجله في معرض تصوير النعيم المقيم، وما تذخر به الجنة من حور عين:

مَعَ الْحُوْرِ أَمْثَالِ التَّمَاثِيْلِ أُخْلِصَتْ مَعَ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا لِمَنْ كَانَ عَالِيَا[2]

فالصورة التشبيهية وإن بدت للمتلقي قريبة إلا أنها مبنية على التخييل حيث شبه الحور بالتماثيل ويرمز بالمشبه به لصورة الحسن والجمال باستخدام أداة التشبيه أمثال، كما أنها مثلت وقتها جديدة غريبة حيث قيلت في مجتمع جاهلي حديث عهد بتعاليم الإسلام، ومن ثم فهي تمثل المكافأة العليا التي تستحق كل تضحية.

---

(1) التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د/ محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة (القاهرة) ط الثالثة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، صـ ٥.

(2) التماثيل : جمع تمثال، وهو الصورة التي تصنع على أحسن ما يقدر عليه، وأخلصت: أحكم صنعها وأتقن، والضمير في أخلصت يعود على الحور العين.

وفي موضع آخر من القصيدة نفسها يتكئ على الصورة التشبيهية، ليصور شجاعة الصحابة رضي الله عنهم، وحسن يقينهم وصدق إيمانهم في قتال كفار قريش فقال:

لَقِيْنَاهُمْ كَالْأُسْدِ تَخْطِرُ بِالْقَنَا نُقَاتِلُ فِي الرَّحْمَنِ مَنْ كَانَ عَاصِيَا

فالصورة التشبيهية صورة مستمدة من البيئة، وهي صورة شائعة وقتها في الشعر العربي فأشجع ما يمكن التشبيه به هو الأسد، ومن ثم صور شجاعته والصحابة الكرام – رضي الله عنهم – في غزوة بدر بالأسد التي تتميز بشجاعتها وفتكها بمن أمامها، فجاءت الصورة طيعة غير متكلفة ناسبت الفكرة والحالة الشعورية، وفي استخدام الشاعر لأداة التشبيه الكاف ما يؤيد ذلك فهي "الأصل– في أدوات التشبيه– لبساطتها والأصل فيها أن يليها المشبه به"(١).

وشبيه بتلك الصورة التشبيهية في شعر رثاء الأعضاء. قول الشاعر هميم بن صعصعة هو يصور تغير حاله بعد إصابته في رجله:

إِنَّ الْقَنَاةَ بِالْفَتَى جِدُّ سَمَجْ وَكُنْتُ كَالظَّبْيِّ إِذَا الظَّبْيُ مَعَجْ

ففي ثنايا رثاء الشاعر لرجله بعد أن أصيب فيها، يصور للملتقى تغير حاله ويصف مأساته، ويستعين بالتشبيه بوصفه أداة فعالة في نسج الصورة الفنية فبعد أن كان يسرع في مشيته كالظبي يقفز يمنة ويسرة أصبح لا يستطيع أن يمشي إلا متكئا على العصا التي يستعين بها العرجان في مشيتهم، ومن ثم فهو في معاناة يعالج أثرها دوما.

وعلى هذا المنوال من التصوير بالتشبيه تشكلت جماليات الصورة التشبيهية في شعر رثاء الأعضاء تعبيرا عن الأحاسيس وترجمة للمشاعر.

ومن نماذج التشبيه في شعر رثاء الأعضاء باستخدام كأن قول الشاعر عبد الله بن سبرة في ثنايا تصوير قوة خصمه وهيئته التي كان عليها:

(١) علم البيان، د/ بدوي طبانة، ط دار الثقافة للطباعة والنشر(بيروت)، (د ـ ت)، صـ ٦١.

كَـــأَنَّ لِمتَّتَـــهُ هُـــدَّابُ مُخْمَلَـــةٍ أَحَـــمُّ أَزْرَقُ لَـــمْ يُشْـــمِطِ وَقَـــدْ صَـــلِعَا

فالعدو له شعر متهدل، كأنه خيوط سوداء لم تختلط ببياض تحيط برأس أصـــلع، وهي صورة مريبة بعض الشيء أقلقت الشاعر فجعلته يأخذ الحيطة والحذر، ويعزم على مواجهته بقوة، ولا يخفى ما استعان به الشاعر من أدوات فنية لتقوية الصـــورة فالتشـــبيه بـــ(كأن) التي تفيد التوكيد، وعناصر الصورة المستمدة من اللون في قوله: أحم أي أسود، وأزرق والصورة البصرية وهو ما كثف الصورة وساعد على التعبير عن المشاعر، ونقل المشهد ومعاناته للمتلقي بصورة معبرة موحية مؤثرة.

ب : الصورة الاستعارية : وكذلك ورد التصوير بالاستعارة فـــي شـــعر رثـــاء الأعضاء وإن كان أقل من التصوير بالتشبيه ،لأن الشعراء في رثـــاء أعضـــائهم آثـــروا الحقيقة على المجاز حتى لا يستغرق الفكر وقتا في تبين المعنى ينأى بـــه عـــن ملاحقـــة الأحداث، فالمقام والحدث لا يتطلب المجاز ، وإنما ما يوافقـــه إيثـــار التعبيـــر باســـتخدام الحقيقة ،وإن لم تخل أشعارهم تمامًا من هذه الصور العميقة، ومنه قول عبيدة بن الحارث بن المطلب:

فَأَكْرَمَنِى الـــرَّحْمَنُ مِـــنْ فَضْـــلِ مَنِّـــهِ بِثَـــوْبٍ مِـــنَ الْإِسْـــلَامِ غَطَّـــى الْمَسَـــاوِيَا

فقد شبه العقيدة الإسلامية واعتناق الإسلام الذي يجب ما قبله من ذنوب، بـــالثوب الذي يستر العورة ويخفي ما تحته، ثم حذف المشبه (العقيدة أو الإيمان) واســـتعار لفـــظ المشبه به (الثوب) ليقوم مقام المشبه ادعاء بأنه عين المشـــبه والقرينـــة اللفظيـــة كلمـــة (الإسلام) وفي هذا صورة من المبالغة تجعل المعنى أبعد مدى وأوغل في النفس، وبهـــذا عاون التصوير بالاستعارة على إظهار المعنى، وتقويته وتقريبه بالتجسيد فـــالمغفرة أمـــر معنوي عقلي يفهم ولا يرى، والثوب محسوس، فالصورة بعمقهـــا تحمـــل دلالات مشـــعة مؤثرة في النفس.

ومن نماذج التصوير بالاستعارة في رثاء الأعضاء استعارة كلمة (نار) للعقاب أو القصاص في قول الضحاك بن خليفة في رثاء رجله:

كَـــادَتْ وَبَيْـــتِ اللهِ نَـــارُ مُحَمَّـــدٍ يَشِـــيْطُ بِهَـــا الضَّـــحَاكُ وَابْـــنُ أُبَيْـــرِقِ

فصور ما حل بهم من عقاب كان سببًا في كسر ساقه بالنـــار التـــي تحـــرق ولا تترك، مبالغة في المعنى وتكثيفا للصورة، مع ما تفيده الصورة من تجسيد يعـــاون علـــى إيضاح الصورة، وإبرازها مكتملة للمتلقين...

ب : وكان **للصورة الكنائية** نصيب من الحضور في شعر رثاء الأعضـــاء بمـــا تكتنز به من معاني الذكاء والفطنة في التعبير عن المعنى، وما تفيـــده مـــن الإيحـــاء أو التعريض، أو عرض المعنى في صورة ملموسة محسة ليزداد وضوحًا وتشويقًا ومن ذلك قول : عبد الله بن سبرة في رثاء يده:

يَمْشِـــي إِلَـــى مُسْـــتَمِيْتٍ مِثْلِـــهِ بَطَـــلٍ حَتَّـــى إِذَا أَمْكَنَـــا سَـــيْفَيْهِمَا امْتَصَـــعَا

فالبيت بشطريه كناية عن الإصرار والعزيمة الماضية في حرص كل واحد منهما على الفتك بخصمه وقتله، حتى إذا تمكن أحدهما من الآخر أعمل فيه ســـيفه، فالصـــورة الكنائية محملة بالكثير من الشحنات العاطفية المكتنزة، والعمل على إبراز الجوانب النفسية الدفينة في تجربة الشاعر.

ومن نماذج التصوير بالكناية قول حياض بن قيس القشيري في رثاء رجله:

أَنَـــا الْقُشَـــيْرِيُّ أَخُـــو المُهَـــاجِرَه أَضْـــرِبُ بِالسَّـــيْفِ رُؤُوْسَ الْكَـــافِرَه

فقوله أخو المهاجرة كناية عما يتميز به المؤمن الصادق المهاجر من روح البذل والتضحية، ومن ثم فلا يستغرب تضحيته بأحد أعضائه في سبيل دينه، وكـــذلك الشـــطر الثاني للبيت كناية عن إقدامه وشجاعته، ونيله من أعدائه.

ومن نماذج التصوير بالكناية قول الشاعر الطائي الأعرج في رثاء رجله:

وَتَشْـــكِي إِلَـــى جَارَتِهـــا وتَعِيْبُنِـــي فَقَالَـــتْ مَعَـــاذَ اللهِ أَنْكِـــحُ ذَا الرِّجـــل

فقوله: (ذا الرجل) كناية عن عرجه أو فقده لإحدى قدميه لأن تلقيبه بذي الرجل يستلزم فقدها أو إصابتها... وجمال الكناية هنا هو نجاحها في تصوير مأساة الشاعر، والحالة النفسية التي تكتنفه، وحسن تصوير ما يعتلج في نفسه من هموم وآلام جرتها عليه إصابته في رجله.

ومن نماذج التصوير بالكناية قول عمرو بن أحمر الباهلي:

غَـــادَرَنِي سَـــهْمُهُ أَعْشَـــى وَغَـــادَرَهُ سَهْمُ ابْـنِ أَحْمَـرَ يَشْـكُو الـرَّأْسَ وَالْكَبِـدَا

فالشطر الأول من البيت كناية عن إصابته في عينه وفقدها جراء السهم الذي رماه به عدوه، والشطر الثاني كناية عن ثأره وما ناله من عدوه بعد أن أصابه في رأسه وطعنه في بطنه حتى تركه صريعا مجندلا. وجمال الكناية في حسن تصوير المشهد بصورة من التهويل والتفخيم، وإيثار التعريض على التصريح...

ومهما يكن من أمر، فإن شعر رثاء الأعضاء اشتمل على الصورة البيانية بأنماطها المتعددة، والتي جاءت معبرة كاشفة عن المعنى، مصورة للأحاسيس ، خادمة للفكرة... وأحب أن ألمح إلى أمر مهم وهو أن هذه الصورة البيانية التي عرضت لها بالتحليل ليست كل ما جاء في نتاج شعر رثاء الأعضاء فهناك من عناصر الصورة: الصورة اللونية، والصورة السمعية، واللمسية، والذوقية، والحركية... وكلها تتآزر مع الصورة البيانية الجزئية لتشكيل واكتمال الصورة الكلية، فهي ليست منفصلة ولكن طبيعة الدرس النقدي في الوقوف مع بعض الظواهر الفنية والجمالية لتشكيل الصورة بالتحليل هو ما دفعنا لذلك... كما أن طبيعة الدراسة لا تتيح الفرصة للتعرض بالتحليل لجميع ما ورد من الصور في نتاج رثاء الأعضاء.

سادسا : الموسيقا الشعرية :

السمة الفارقة بين الشعر والنثر، والميزة التي يتفرد بها عن غيره من الفنون الأدبية هي الموسيقى، "فالموسيقا حد الشعر وسمته الفارقة يستخدمها الشاعر ليناسب بينها وبين المواقف المصورة، ويلائم بين الارتفاع وحالاته الفنية الخاصة"(١). وتعد الموسيقا أبرز الأدوات الفنية التي شكلت الجانب الجمالي لشعر رثاء الأعضاء، والتي وردت منوعة ما بين موسيقا خارجية، وأخرى داخلية، وهو ما سوف أتناوله بشيء من التحليل في السطور التالية:

أ : الموسيقا الخارجية :

١: الوزن : الوزن الشعري للقصيدة العربية أو المنهج الذي ارتضته الفطرة العربية في التعبير عن مشاعرها ، أن تخرج عاطفتها في دفقات إيقاعية منضبطة منظمة، حتى عرف شعرهم به ومن ثم كان النقاد القدامى إذا عرفوا الشعر، أو أرادوا أن يضعوا له ضابطًا يميزه؛ عرفوه من الجهة التي يمتاز بها أو تغلب عليه وهي الوزن والقافية، فقديما عرفه قدامة ابن جعفر تـ ٣٣٧ه بأنه " كلام موزون مقفى"(٢)، وعرفه ابن خلدون تـ٨٠٨ه فقال: " الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي"(٣)، وما الأوزان الخليلية التي وفق الخليل بن أحمد الفراهيدي تـ١٧٠ه في استنباطها وتقعيدها إلا محصلة استقراء وتحليل لما أبدعه العرب بداع من أحاسيسهم المعبرة ولغتهم الشاعرة، ولأن الدراسة التي نحن بصددها تعالج موضوعا يتصل بالعصور الذهبية في الحفاظ على التقاليد الشعرية، وانطلاق التجربة من منظور المحافظة على عمود الشعر العربي بداع من فطرتهم، فقد جاء شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام على الأوزان العربية الموروثة، أو ما أطلق عليه الأبحر الخليلية،

(١) الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي، ط دار المعارف بمصر، ط الثانية ١٩٨٣م، صـ ٣٧١.

(٢) نقد الشعر، قدامة ابن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط دار الكتب العلمية (بيروت)، (د – ت)، صـ ١٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون، (م، س)، جـ ٣، صـ ١١٥٨.

ولعل **أولى الظواهر الموسيقية** التي أقف معها أن شعر رثاء الأعضاء جاء على **الأبحر الطويلة**، وهو إن كان مألوفا في هذا العصر تبعا لما قبله فإن له دلالته الفنية فنحن نعالج موضوعا يتصل بفن الرثاء وهو ما يتناسب وهذه الأبحر يقول د/ إبراهيم أنيس: "على أننا نستطيع- ونحن مطمئنون- أن نقرر أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير -عادة- وزنا طويلًا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع، تأثر بالانفعال النفسي، وتطلب بحرًا قصيرًا يتلاءم وسرعة التنفس، وازدياد النبضات القلبية"(١).

والجدول التالي الذي انصب على شواهد الدراسة سوف يساعدنا في إحصاء الأبحر التي ورد عليها شعر رثاء الأعضاء.

م	البحور الشعرية	عدد النماذج	صورة البحر
١	الطويل	٩	تام
٢	الرجز	٦	تام، ومشطور
٣	البسيط	٣	تام
٤	الوافر	٣	تام
٥	الكامل	٢	تام
٦	المتقارب	١	تام

ومن خلال هذا الإحصاء نستنتج :

تفاوت الأبحر التي نظم عليها شعر رثاء الأعضاء على ثلاث صور، بحور كثيرة الشيوع وهي (الطويل، الرجز) وبحور قليلة الاستعمال وهي (البسيط، الوافر، الكامل، والمتقارب) وبحور لم ينظموا عليها، وهي بقية الأبحر الستة عشر المعروفة، وهم بهذا يتوافقون وما شاع في الشعر العربي من حيث الكثرة والقلة.

(١)موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ط مكتبة الأنجلو المصرية، ط الثانية ١٩٥٢م، صـ ١٧٧، ١٧٨.

ولعل الملحظ المهم من هذا الاستقراء أن شعر رثاء الأعضاء نظم على البحور الشائعة في النظم العربي قديما، وأغلب هذه البحور يتناسب مع أغراض الجد كالرثاء وتدفق المعاني وجو الشجن، باستثناء بحر المتقارب الذي نظم عليه شاهد واحد لما فيه من سرعة وتتابع سرد، وفيه أيضا مناسبة للطعن والنزال والكر والفر.

جاء شعر رثاء الأعضاء على الأبحر التامة دون مجزوئها، ولعل مرجع ذلك أن البحور التامة تساعد على استيعاب التجربة، والتعبير عن المعنى في أتم صورة وأبهاها، مع ما يشير إلى تمكنهم من لغتهم وأساليبهم في عصور القوة والسلامة اللغوية.

تنوع البحور والغرض واحد، وهو ما يدل على أن جميع البحور تصلح للتعبير عن غرض بعينه، ومرجع ذلك غنائية هذه الأبحر وسعتها، وكذلك مقدرة الشعراء على تطويع موسيقى هذه الأبحر في التعبير عن مكنون أنفسهم.

٢ : القافية :

تعد القافية الركيزة الثانية لموسيقى الشعر الخارجية، وأجل ما تميز به شعرنا العمودي وتبرز أهميتها في كونها تمثل "عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءا مهما من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة"(١). وقد جاء شعر رثاء الأعضاء محافظا على القافية ملتزما الروي الواحد وهو ما يتناسب -بطبيعة الحال- والعصر موضوع الدراسة، لأن حركات التجديد بالخروج على القافية الموحدة لم تكن ظهرت، وإنما بدأت محاولات الخروج على نظام القافية في العصور التالية لهذا العصر وأبرزها في العصر العباسي.

(١) موسيقى الشعر ، د/ إبراهيم أنيس، ص ٤٦.

وسوف أتناول قافية شعر رثاء الأعضاء بشيء من التحليل للوقوف على أبــرز مظاهرها الفنية من خلال الجدول التالي :

م	حرف الروي	عدده	صفته	نوع القافية	ملاحظات
١	الدال	٥	مجهور	مطلقة	
٢	العين	٣	مجهور	مطلقة	
٣	الراء	٣	مجهور	مطلقة	
٤	الباء	٣	مجهور	مطلقة	
٥	النون	٣	مجهور	مطلقة	
٦	اللام	٢	مجهور	مطلقة	
٧	الجيم	٢	مجهور	مطلقة، ومقيدة	
٨	القاف	٢	مجهور	مطلقة	
٩	الياء	١	مجهور	مطلقة	
١٠	الميم	١	مجهور	مطلقة	

ومن خلال هذا الإحصاء نستنتج :

أن القافية في شعر رثاء الأعضاء جاءت على الأحرف كثيرة الشيوع في الشــعر العربي، كما أنها تفاوتت ما بين حروف كثيرة الشيوع في نتاج رثــاء الأعضــاء وهــي (الدال، والعين، والراء، والباء، والنون)، وحروف متوسطة الشيوع وهي (اللام، والجــيم، والقاف)، وحروف قليلة الاستعمال وهي (الياء، والميم) وهــذه الأحــرف عمومــا هــي الأحرف نفسها التي أشار إليها النقاد عند حديثهم عن موسيقى القافية مــن جهــة شــيوع استعمال الحرف وندرته[١] .

اتفقت صفات هذه الأحرف جميعها في صفة الجهر، فجــاء روى شــعر رثــاء الأعضاء حرفًا جهوريًا ، والجهر صفة ناتجة عن تذبذب واهتزاز الأوتار الصوتية خــلال النطق بصوت معين، وهو ما يتوافق مع التجربة حيث شدة النبر وعلو الصوت وجهورية

(١) ينظر السابق صـ ٢٤٧، ٢٤٨ .

النغم، وما يتناسب مع الحالة التي تكتنف الشاعر لاسيما أن أغلب هذا الشعر أنشد في ساح المعركة حيث العراك والنزال والإقبال والإدبار والقتل أو الإصابة...

شيوع القوافي المطلقة، وندرة القوافي المقيدة، فلم أقف على إلا على نموذج واحد أربعة أبيات جاءت قافيته مقيدة، ومما لا شك فيه أن القافية المطلقة تتوافق ومضمون التجربة بما تساعد عليه من إطالة الصوت وخروج النفس، في إخراج دفقات الألم وإحساس الفقد لأحد أعضاء الجسد، ومن ثم فهو يريد التنفيس عن دفين نفسه ولوعة الفراق، وكذلك في الفخر بما ضحّى وقدّم ، وعلو الصوت بإعلان النصر.

جاءت القافية طيعة غير مستكرهة متمكنة في موضعها في ختام البيت ملائمة للمضمون مرتبطة بالفكرة التي يتناولها الشاعر، مع ما امتازت به من الفخامة والجزالة لأن البيئة والعصر تميزا بالتمكن من اللغة والأساليب.

ب : الموسيقا الداخلية ومظاهرها في شعر رثاء الأعضاء :

تمثل الموسيقا الداخلية للنص الجانب الثاني المتمم للإيقاع الموسيقي بالإضافة إلى الموسيقا الخارجية، وللموسيقا الداخلية وقعها الخاص ونغمها الإيقاعي " الذي ينبع من اختيار الشاعر لكلماته وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة، تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام..."(١)، وللموسيقا الداخلية صور تتجلى فيها كموسيقا الحرف المتمثل في نغمه ورنته الصوتية، وموسيقا الكلمة من خلال جرسها الناتج عن اختيار الشاعر لها، وموسيقا الأسلوب بإيقاعاته النابضة من خلال تأليف العبارة وصياغتها الشعرية، كما تتجلى الموسيقا الداخلية من خلال حسن توظيف الشعراء لبعض ألوان المحسنات البديعية كالتصريع، وحسن التقسيم، والجناس، والتكرار، وغير ذلك شريطة أن تأتي طيعة غير متكلفة... وهذا كله وغيره كالصورة الشعرية من أهم روافد الموسيقا الداخلية التي تتواءم والمعنى أو الفكرة المتغياة بما تحمل من إيحاءات موسيقية وهزة داخلية... وقد مر بنا في تناول الأسلوب الإشارة إلى بعض هذه الأنماط كالتكرار والطباق في شعر رثاء الأعضاء مما يغني عن

(١) في النقد الأدبي، د/ شوقي ضيف، صـ ٩٧.

إعادته، لذا سأقف في هذه السطور مع بعض المظاهر للموسيقا الداخلية في شعر رثاء الأعضاء.

موسيقا الحرف :

النغم الصوتي الذي يحدثه الحرف العربي برنينه وجرسه الموسيقي أبرز ما يميز اللغة العربية وفي ذلك يقول العقاد: " كان امتياز الحروف العربية بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا محل فيها للمحال، فالأذن العربية تميز بين الظاء والضاد، وبين الذال والدال، وبين الحاء والخاء والهاء... وقلما يميز الناطقون باللغات الأخرى بين هذه الحروف"،[1] فنبر الحرف بما يحدثه من هزة في نفس المتلقي لا يقل أثرًا عن صوت العازف على نايه، أو أوتار عوده ، موسيقية وطربًا.

ومن صور موسيقا الحرف التي أحدثت نغما داخليًا متجاوبًا مع المعنى خادمًا للفكرة في شعر رثاء الأعضاء، قول أبي خراش:

لَمَّا رَأَيْتُ بَنِي نُفَاثَةَ أَقْبَلُوا ... يُشلُونَ كُلَّ مُقَلِّصٍ خِنَّابِ[2]
فَنَشِيْتُ رِيْحَ الْمَوْتِ مِنْ تِلْقَائِهِم ... وكَرِهْتُ كُلَّ مُهَنَّدٍ قَضَّابِ[3]
وَرَفَعْتُ سَاقًا لَا يُخَافُ عِثَارُهَا ... وَطَرَحْتُ عَنِّي بِالْعَرَاءِ ثِيَابِي
أَقْبَلْتُ لَا يَشْتَدُّ شَدِّي وَاحِدٌ ... عِلْجٌ أَقَبُّ مَسَيَّرُ الْأَقْرَابِ[4]

فقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظه المعبرة عن المعنى والفكرة المتغياة في تصوير قوته وقدرة ساقيه على العدو، ومهارته وفطنته وحنكته في الفرار معتمدًا على ساق قوية لا يخاف عثارها... ومن ثم انتقى الألفاظ المشتملة على حروف تتميز بجرس

---

(١) الثقافة العربية، ضمن الأعمال الكاملة لمؤلفات العقاد، ط دار الكتاب اللبناني (بيروت)، ط الأولى ١٩٧٨م، جـ١٠، صـ ٢٠٦.

(٢) يشلون: يدْعُون ومنه أشليت الكلبة إذا دعوتها، خناب : طويل، والفرس المقلص الطويل القوائم .

(٣) نشيت: شممت ريح الموت، والقضاب : القَطَّاع .

(٤) أقب : ضامر، الأقراب : جمع قرب كقفل وهو الخاصرة، ومسير الأقراب أي فيه خطوط .

خاص يخدم التجربة ويساعد في التعبير عن المشاعر والأحاسيس، كالألفاظ التي اشتملت على **الحروف المشددة** التي تفيد تأكيد المعنى كاللام المشددة في **(مُقَلِّص)**، والنون في **(خِنَّاب)**، و**(مُهَنَّدٍ)** والضاد في **(قَضَّاب)** والدال في **(يَشْتَدُّ شَدِّي)**، والباء في **(أَقَبُّ)** فالمعنى الذي يعالجه الشاعر تطلب هذا التشديد، مع ما امتازت به هذه الألفاظ من رصانة وقوة، وتكرار حرف الشين في الألفاظ **(يُشلُونَ، فَنَشِيْتُ، يَشْتَدُّ، شَدِّي)** فحرف الشين للتفشي وهو الانتشار والشيوع فالشاعر عبر عن قوتهم وكثرتهم وانتشارهم وهم يدعون فرسانهم لمقاتلته بكلمة **(يُشلُونَ)** ثم قابل قوتهم بقوة أكبر في قوله: **(أَقْبَلْتُ لَا يَشْتَدُّ شَدِّي وَاحِدٌ)** ليشكل المعنى والحرف إيقاعا نفسيا يجعل النفس تهتز له وتقبل عليه... ومثله حرف الصاد في **(مُقَلِّص)**، والضاد في **(قَضَّاب)** ولا نغفل حرف الباء التي اختارها رويا لأبياته بحركة رويها المكسور وهي حرف جهوري يناسب الحالة الشعورية التي يحياها، ويتوافق مع التجربة التي يعالجها.

ومن الأمور التي ينبغي الالتفات إليها في موسيقا الحرف أن يكون الحرف المختار تكراره حرفًا شاعرًا في موضعه، بمعنى أن يشعر المتلقي بالموسيقا الناتجة من الأريحية المنبثقة من التلاؤم والانسجام وعدم التنافر، فمن الشعراء من يكرر حروفًا بعينها تكون سببا في إحداث شيء من التنافر الناتج عن تكرار هذه الأحرف في كلمات متتالية، وبالتالي تفقد الحروف بل الكلمات والأسلوب موسيقيتها، وأرى ذلك محققا في قول همِيم بن صعصعة في رثاء رجله التي أصيب فيها وعرج بسببها:

أَعُوْذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ سُوْءِ الْعَرَجْ وَمِنْ خُمَاعٍ وَظُلَاعٍ وَعَرَجْ
إِنَّ الْقَنَاةَ بِالْفَتَى جِدُّ سَمَجْ وَكُنْتُ كَالظَّبْيِّ إِذَا الظَّبْيُ مَعَجْ

نلاحظ أن الشاعر اعتمد على تكرار حرفي **العين والجيم** في كلمات متتالية تشتمل على هذين الحرفين هي: (أعوذ، العرج، خماع، ظلاع، عرج، سمج، معج) فنحن أمام معجم للمترادفات اللغوية التي تدور حول معان متقاربة، وإذا دققنا فيما أحدثه تكرار هذه الأحرف لوجدنا أنفسنا أمام صورة من التكلف: (خماع، وظلاع، وعرج) فقدنا بسببها

الجانب الشاعري للألفاظ، وخرجنا من طور تناغم الحرف بجرسه الأغن إلى طور التنافر والثقل الممجوج.

موسيقا الكلمة :

وللكلمة الرشيقة المعبرة عن معناها والواقعة في مكانها المناسب من النظم موسيقاها الآسرة وإيقاعها في النفس، فمن" الكلمة تتكون الموسيقا اللفظية فيما نقرؤه من شعر موزون، وفيما نتلوه من جمل لها توقيع منغوم"،[1] وبعد دراسة كلمات شعر رثاء الأعضاء وتحليل ألفاظه من حيث ملاءمة التجربة والتعبير عن المعنى وخدمة الفكرة مع اتسامها بشروط الفصاحة، وبُعدها عن التكلف؛ وجدنا أن ألفاظ شعر الرثاء جاءت في الأعم الأغلب تحمل جانبا موسيقيا يمثل جانب الإيقاع الآسر الناتج عن الجرس الموسيقا للألفاظ الملائمة للتجربة، ويمكن أن نلحظ ذلك في قصيدة الصحابي عبيدة بن الحارث في معرض رثاء رجله، وإظهار روح الرضا والتسلم والفرح بما قدم للحصول على ثواب الله ونعيمه يقول:

وَبِعْتُ بِهَا عَيْشًا تَعَرَّقْتُ صَفْوَهُ وَعَالَجْتُهُ حَتَّى فَقَدْتُ الْأَدَانِيَا

فكل كلمة في هذا البيت جاءت في موضعها المناسب ملاءمة للسياق الذي ذكرت فيه معبرة عن المعنى أتم تعبير فعبر عن معنى التضحية بالعضو بالبيع في قوله: **(وَبِعْتُ)** لأنه يتاجر مع الله، وقال: **(عَيْشًا)** ولم يقل حياة لأن الحياة الحقيقية الباقية تكون في الآخرة والتي باع من أجلها عيشا مؤقتا... وقد أجاد الشاعر في اختيار كلمة **(تَعَرَّقْتُ)** فهي كلمة شاعرة مصورة وقعت موقعا موسيقيا أخّاذًا، ولو حاولنا استبدالها بلفظة أخرى لما أعطت هذا الإيقاع الداخلي الواقع في النفس المهيج لمشاعر المتلقي المحدث لتجاوبه... فقد تعرق الشاعر صفو هذا العيش، وبالتالي فهو يبيع اختيارًا ورغبة ، وليس إكراهًا لأنه كان يعيش في هناءة ورغد ، ومن ثم فقد اختار...

---

(1) في ميزان النقد الأدبي، د/ طه أبو كريشة، ط المليجي، (القاهرة) ط الأولى ١٩٧٦م، صـ ٢١.

وكلمة **(عالجته)** تناسب المعنى، وتتلاءم مع كل ما ذكر في الشطر الأول، فقد جرب الأمور وخبر الحياة... وجمال البيت ينبع من حسن تصور المسلم وانعتاقه من عالم الشهوات وتطلعه لما هو أغلى وأثمن وهو ما أحدثه الإسلام في نفوس معتنقيه، ولا نغفل دور الحرف في البناء الموسيقي للكلمة فقد شاعت بعض الأحرف كالعين الذي جاء أربع مرات في بيت واحد (بعت، عيشا، تعرقت، عالجته).

ومن نماذج موسيقا الكلمة في شعر رثاء الأعضاء ، قول بشر بن العسوس في رثاء عينه التي فقئت يوم صفين:

أَلَا لَيْتَ عَيْنِي هَذِهِ مِثْلُ هَذِهِ وَلَمْ أَمْشِ فِي الْأَحْيَاءِ إِلَّا بِقَائِدِ
وَيَا لَيْتَ رِجْلِي ثُمَّ طُنَّتْ بِنِصْفِهَا وَيَا لَيْتَ كَفِّيْ ثُمَّ طَاحَتْ بِسَاعِدِ[1]

فالبيتان يمثلان مأساة فقد عين، تكنفت صاحبها الحسرة والألم وشد الحزن لفقد أعز ما يملق... ولعل أهم ملحظ أن الشاعر في رثاء أحد أعضائه وهي العين حشد ألفاظا عبارة عن أسماء لأعضاء أخرى فذكر (العين، والرجل، والكف) ثم اختار لكل ما يناسبه فعند فقد عينه يحتاج لمن يكون دليله فقال: " ولم أمش في الأحياء إلا بقائد ". وهو أسلوب قصر اعتمد فيه على النفي والاستثناء وعند حديثه عن رجله ذكر القطع أو القلع فقال: ويا ليت رجلي ثم طنت بنصفها، وعند ذكر الكف قال طاحت بساعد وهو ما يدل على أن الشاعر اختار ألفاظه بعناية لتعبر عن المعنى أتم تعبير، فانبعثت موسيقى يستشعرها المتلقي تصور الجو النفسي للشاعر انبثقت من الكلمات بإيقاعها والأساليب بنظمها، ولا نستطيع ونحن نحلل البيت أن نغفل جانب التكرار في (ليت)، والاستفتاح بـــ ألا واستخدام (يا) الموحية بالدعاء مرتين، وتنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء وقد أشرت لذلك من قبل... لكن دوره هنا في اكتمال الإيقاع الداخلي مهم... فالموسيقا تولدت من هذه المنظومة مجتمعة الحروف والكلمات والأساليب والصور التي عبرت عن الفكرة أتم تعبير.

(١) طُنَّتْ : أي قلعت وسقطت .

موسيقا النظم والأسلوب :

من ألوان الموسيقا الداخلية التي اشتمل عليها شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام، موسيقا الأسلوب، وفيه نجد التأليف والتناسق التام بين اللفظ والمعنى ومراعاة التناسب للفكرة أو المضمون، ويأتي هذا كله مشفوعا بحسن التخييل في صورة من التواؤم التي تخلو من التنافر، وقد ظهر هذا في بعض الأساليب التي ذكرتها في الحديث عن الأساليب، وفي جانب الموسيقا هنا أشير إلى البعض الآخر منها:

التصريع: وهو أحد الألوان الموسيقية البديعية، وفيه تغير العروضة لتلحق بالضرب وزنا وقافية، ومن نماذجه في شعر رثاء الأعضاء قول الصحابي علي بن أبي طالب في مطلع قصيدته التي رثا فيها عين الصحابي عثمان بن مظعون وهجا من فعلوا ذلك من مشركي قريش:

أَمِنْ تَذَكُّرِ دَهْرٍ غَيْرَ مَأْمُوْنِ أَصْبَحْتَ مُكْتَئِبًا تَبْكِي كَمَحْزُوْنِ

فقد صرع مطلع قصيدته حيث ألحق العروض بالضرب وزنا وتقفية، فمن المعلوم أن بحر البسيط التام له عروضة واحدة مخبونة، لكنه غيرها هنا وجاء بها مقطوعة للإلحاق بالضرب المقطوع، مع مراعاة اتفاق حرفي روى الشطر الأول والثاني وهو ما أحدث نغما موسيقيا آسرًا مؤثرًا.

التقفية : وفي هذا اللون يلحق الشاعر قافية العروض أو رويه بروي الضرب دون الإلحاق أو التغيير في الوزن، وفيه لون من الموسيقى يحدث من التناسب وتكرار حرف الروي في شطري البيت، ومنه قول ناشد رجله:

أَقْدِمْ حَذَامُ إِنَّهَا الْأَسَاوِرَه وَلَا تَغُرَّنَّكَ رِجْلٌ نَادِرَهْ

أَنَا الْقُشَيْرِيُّ أَخُو المُهَاجِرَه أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رُؤُوْسَ الْكَافِرَه

ومثل قول الشاعر السليك العقيلي في رثاء يده التي قطعت في حروب الردة:

كَيْـــفَ تَرَانِـــي وَأَخِـــي عُطَـــارِدَا نَـــــذُوْدُ مِـــــنْ حَنِيْفَـــــةَ الْمَـــــذَاوِدَا
نَـــــذُوْدُ مِـــــنْهُمْ سِـــــرْعَانًا وَارِدَا أَنْشُـــــدُ كَفًّـــــا ذَهَبَـــــتْ وَسَـــــاعِدَا
أَنْشُـــــدُهَا وَلَـــــا أُرَانِـــــي وَاجِـــــدَا إِلَـــــا فَتًـــــى يَسْـــــقِي شَـــــرَابًا بَـــــارِدَا

وأمثلة هذا اللون في شعر رثاء الأعضاء كثيرة.

الترصيع أو التقسيم :

في هذا اللون من الأساليب البديعية يقسم الشاعر معانيه إلى أقسام تتفق فيها مقاطع الأقسام في الحرف الأخير والوزن تقريبا...[1] وقد عده النقاد أحد ألوان الموسيقى الداخلية التي تتميز بإيقاع صوتي مؤثر، كما أن هذه الظاهرة الموسيقية تتخطى جانب الألفاظ، لتنقل إلى الجانب الإيحائي في التعبير عن الحالة النفسية ومكنون أحاسيس الشاعر ومن نماذج هذا اللون في شعر رثاء الأعضاء، قول الشاعر حكيم بن جبلة في رثاء رِجْلِه التي فقدها في موقعة الجمل:

يَا سَاقُ لَا تَرَاعِي ... إِنَّ مَعِي ذِرَاعِي ... أَحْمِي بِهَا كُرَاعِي .

فنلحظ أن الشاعر قسم معانيه، ورصع قوافيه وأوزانه بصورة إيقاعية عذبة راعى فيها مقدار الحركات والسكنات والمدة الزمنية للمنطوق مع مراعاة اتفاق الجمل وزنًا وتقفيةً، مع ما تميزت به من كونها جاءت طيعة غير متكلفة، جعلت المتلقي يتجاوب معها وكأننا أمام نشيد حماسي يردده المقاتل الشجاع في ساح الوغى ليشحذ به همم المجاهدين.

ومهما يكن من أمر فإن شعر رثاء الأعضاء تميز بموسيقاه العذبة المحافظة، والتي جمعت بين نوعي الموسيقا الخارجية بلونيها الوزن والقافية والداخلية التي تمثلت في موسيقا الحرف والكلمة والأسلوب.

---

(1) ينظر في مفهومه نقد الشعر، لابن قدامه، صـ٦، وعناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى د/عباس عجلان صـ ٢٢٩.

الخـــــــاتمة

بعد الانتهاء من هذه الدراسة المنصبة على أحد مضامين فن الرثاء التي جَدَّتْ في عصر صدر الإسلام، ونمت بسبب تغير الحياة وكثرة الأحداث؛ ازددت قناعة أن موروثنا الأدبي والثقافي مازال حافلًا بالكثير من الكنوز التي تنتظر من يكشف عنها، ليعلـــي مـــن صرح أمتنا، فالتراث يمثل الهوية الثقافية والحضارية لأمتنا العربية والإسلامية، وأمة لا تحافظ على جذورها أمة هشة تتخطفها الأهواء، والحفاظ على جذور هذه الأمـــة وتوثيـــق صلة أبنائها بها يفرض علينا الإفادة من موروثنا الثقافي من خلال العنايـــة بـــه وتأملـــه ودراسته دراسة متأنية، مع مراعاة الأخذ بكل جديد نافع مما يستجد من علوم ومعـــارف، وبعد دراسة شعر رثاء الأعضاء توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

* أثبتت الدراسة ثراء شعر صدر الإسلام وقوته وتجدده، وتطور أغراضه تبعا لأحداثه.

* أثبتت الدراسة وهن حجج وأقوال من اتهموا الشعر في عصر صدر الإسلام بالتراجع والضعف.

* لم يكتف شعراء عصر صدر الإسلام بتطوير الشعر من خـــلال الأغـــراض الجديـــدة كشعر الدعوة، ومدائح الرسول وغيره، بل طوروا الأغراض القديمة وأضافوا إليها.

* كشفت الدراسة عن أحد أغراض الشعر التي جدت في عصر صدر الإســـلام بســـبب كثرة الأحداث ألا وهو شعر رثاء الأعضاء، والذي ولد ونما في ساح الغزوات والفتوحات الإسلامية.

* اتسم شعر رثاء الأعضاء بأبرز سمات الشعر الإسلامي فجاء متضمنا قيمـــا روحيـــة، وقيما عقلية، وقيما اجتماعية، وقيما إنسانية، كما ظهر فيه أثر القرآن الكـــريم، والحـــديث النبوي الشريف.

* أن الجهاد الذي اتهمه بعض النقاد بأنه السبب الرئيس في ضعف الشعر فـــي عصـــر صدر الإسلام لانشغال المسلمين به عن الشعر؛ هو نفسه الذي طور الشـــعر وجـــدد فـــي مضامينه، وفتح آفاقه، وكان سبب غزارته.

* تجلت في شعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام أحد جوانب صورة المجتمع في هذه الحقبة المهمة من تاريخ الأمة، والتي أضحت ظاهرة في الشعر، فغدا الشعر كالمرايا التي عكست لنا حقيقة الأشياء.

* أثبتت الدراسة أن الشعر في عصر صدر الإسلام كان يجري على كل لسان، فرأينا الشعراء المعروفين، ورأينا غيرهم مما لم نقف لهم إلا على أبيات في هذا الغرض والذي تدفقت به مواهبهم الشاعرة بالفطرة إزاء الموقف، أو التجربة الشخصية.

* أغلب شعر رثاء الأعضاء من شعر المقطوعات أو ما يمكن أن نطلق عليه شعر اللمحة أو المواقف، وأقله جاء في قصائد ومرجع ذلك كونه يعبر عن معاناة، فيعبر الشاعر عنه في سرعة كسرعة الطعنة التي تلقاها أو الرمح الذي رماه، لذا فإن أغلبه هو شعر البديهة، والارتجال الذي يحول بين الشاعر ومعاودة النظر في فنه لتنقيحه وتجويده، فهو شعر يتسم بالإيجاز والعفوية.

* تشكلت الأدوات الفنية لشعر رثاء الأعضاء في عصر صدر الإسلام من خلال الموروث الفني الذي طبع عليه الشعراء، بالإضافة للجوانب الفنية التي اكتسبها من روح الإسلام وتعاليمه حتى غدت ظاهرة من أجل ظواهره الفنية.

توصيات البحث :

- توجيه الباحثين لإعادة النظر في كنوز تراثنا الأدبي والثقافي، واستكمال مسيرة دراسته دراسة متأنية للكشف عن الجديد من مضامين الشعر التي جدت في عصر صدر الإسلام، وغيره من العصور الذهبية للشعر العربي.

- إضافة هذا الغرض الشعري لمفردات دراسة شعر صدر الإسلام المقررة على طلابنا، ليطلعوا على أحد جوانب الأغراض الشعرية التي تطورت في عصر صدر الإسلام.

وبعد : فأسأل الله أن أكون قد وفقت فيما رمته من هذا البحث، وأن يكتب له القبول والنفع ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

دكتور / محمد الدسوقي محمد إبراهيم
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر، فرع بالزقازيق

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
١: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د/ محمد مصطفى هدارة، ط المكتب الإسلامي، دمشق، ط الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢: الأدب في عصر النبوة والراشدين، د/ صلاح الدين الهادي، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط الثالثة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣: أساس البلاغة للزمخشري، تـ الأستاذ عبد الرحيم محمود، ط أولاد أورفاند القاهرة، ط الأولى ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
٤: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ط دار ابن حزم، ط الأولى١٤٣٢ه/ ٢٠١٢م.
٥: أسس النقد الأدبي عند العرب، د/ أحمد أحمد بدوي، ط دار نهضة مصر ١٩٩٦م.
٦: الإسلام والشعر، د/ سامي مكي العاني، ط سلسلة عالم المعرفة رقم (٦٦)، (د، ت).
٧: الأسلوب الصيغي في الشعر العربي القديم، برونو باولي.
٨: أسماء خيل العرب وأنسابها، لأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي، تـ د/ محمد عبد القادر أحمد، ط مكتبة النهضة المصرية، طـ الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٩: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تـ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، سنة النشر ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
١٠: أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مطبعة النهضة المصرية (القاهرة)، ط الثامنة ١٩٧٣م.
١١: إعجاز القرآن للباقلاني، ط دار المعارف بمصر ١٩٥٤م.
١٢: الأغاني لأبي الفرج الأصفهانيّ، ط دار الكتب المصريّة، القاهرة ١٩٣٥م.
١٣: الأمالي، لأبي علي القالي، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ٢٠٠٩م، سلسلة الذخائر برقم.١٨٢
١٤: البحث البلاغي عند العرب، د/ شفيع السيد، ط دار الفكر العربي، القاهرة،١٩٩٦م.

١٥: البداية والنهاية لابن كثير، تـ د/ أحمد عبد الوهاب فتيح، ط دار الحديث، القاهرة، ط السادسة١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٦: البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ، تـ عبد السلام محمد هارون، ط دار الجيل بيروت، ط الأولى١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٧: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، تـ : عبد المتعال الصعيدي، ط صبيح، القاهرة، ط الثانية (دـ ت).

١٨: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي البغدادي، ط دار الكتاب المصري٢٠٠٩م.

١٩: البناء الفني في شعر ابن جابر الأندلسي، د/ سلام علي حمادي الفلاحي، ط دار غيداء للنشر والتوزيع عمان، ط الأولى ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.

٢٠: البيان والتبيين، للجاحظ تـ ٢٥٥هـ، الناشر دار ومكتبة الهلال (بيروت)، ١٤٢٣هـ.

٢١: تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، ط العاشرة (د،ت).

٢٢: تاريخ الطبري، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، ط الثانية، (د،ت).

٢٣: تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر تـ ٥٧١هـ، تـ محب الدين أبس سعيد عمر بن غرامة العمري، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٢٤: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ألف بينها وترجمها: عبد الرحمن بدوي، ط مكتبة النهضة المصرية١٩٤٠م.

٢٥: التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د/ محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة (القاهرة) ط الثالثة ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٢٦: تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء عماد الدين ابن كثير، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٢٧: تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٩هـ/١٩٨٩م.
٢٨: الثقافة العربية، ضمن الأعمال الكاملة لمؤلفات العقاد، ط دار الكتاب اللبناني (بيروت)، ط الأولى ١٩٧٨م.
٢٩: جمْهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد القُرَشي، ت على محمد البجاوي، ط نهضة مصر، (د،ت).
٣٠: جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، ت عبد السلام محمد هارون، ط دار المعارف،ط الخامسة (د،ت).
٣١: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ط المكتبة العلمية بيروت، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م.
٣٢: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني ت٤٣٠هـ، ط دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٣٣: دراسات في لغة الشعر، د/ رجاء عيد ، ط منشأة المعارف (الأسكندرية) ١٩٧٩م.
٣٤: دراسات في النص الشعري (العصر الحديث)، د/ عبده بدوي، ط دار قباء (القاهرة) ١٩٩٧م.
٣٥: دلالة الألفاظ العربية وتطورها د/ مراد كامل، ط نهضة مصر١٩٦٣م.
٣٦: ديوان عمرو بن أحمر الباهلي، جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوان، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق (د – ت).
٣٧: ديوان الهذليين، ط الدار القومية للطباعة والنشر١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
٣٨: سمط اللآلي، لأبي عبيد البكري الأونبي، تحقيق وشرح عبد العزيز الميمني، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة٢٠٠٩م.
٣٩: سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط دار الرسالة العالمية، سنة النشر: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٤٠: السيرة النبوية لابن هشام، تـ محمد بيومي، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٤١: شرح أشعار الهُذَلِيِّين، للسُّكَّريّ، تحقيق عبد السّتّار فرّاج، مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥م.

٤٢: شرح نهج البلاغة لابن حديد، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربية للحلبي، ط الأولى١٣٧٨ه/١٩٥٩م.

٤٣: الشعر الجاهلي بين القصيدة والمقطوعة، د/حسن عباس، (د.ن) القاهرة ١٩٩٣م.

٤٤: الشعر العربي المعاصر روائعه ومدخل لقراءته، د/ الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ط الثانية ١٩٨٣م.

٤٥: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، د/ النعمان عبد المتعال القاضي، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة)، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٤٦: الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تـ أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف (مصر) ١٩٦٦م.

٤٧: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لأحمد فارس تحقيق مصطفى الشويمي، ط مؤسسة بدران للنشر(بيروت) ١٩٦٣م.

٤٨: صحيح البخاري، تحقيق د/ مصطفى ديب البغا، ط دار ابن كثير، اليمامة (بيروت)، ط الثالثة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٤٩: الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر عيسى البابي الحلبي، ط الأولى ١٣٧١ه / ١٩٥٢م.

٥٠: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د/ جابر عصفور، الناشر المركز الثقافي العربي، ط الثالثة ١٩٩٢م.

٥١: الصورة الفنية في شعر، دعبل الخزاعي، ط دار المعارف بمصر، ط الثانية ١٩٨٣م.

٥٢: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، ط المدني، القاهرة ١٩٧٤م.
٥٣: الطرائف الأدبية، تـ عبد العزيز الميمني، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٩م، سلسلة الذخائر برقم ١٨١.
٥٤: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تأليف يحيى العلوي، ط المكتبة العصرية (بيروت)، ط الأولى ١٤١٢٣هـ.
٥٥: العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تـ د/ عبد المجيد الترحيني، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٩٨٣م.
٥٦: علم البيان، د/ بدوي طبانة، ط دار الثقافة للطباعة والنشر(بيروت)، (دـ ت).
٥٧: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محمد محيي الدين، ط دار الجيل (بيروت)، ط الخامسة ١٤٠١هـ /١٩٨١م.
٥٨: عيار الشعر، لابن طباطبا العلوي، تـ عباس عبد الستار، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٩٨٢م.
٥٩: فن الرثاء، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، ط الرابعة ١٩٩٥م.
٦٠: في ميزان النقد الأدبي، د/ طه أبو كريشة، ط المليجي، (القاهرة) ط الأولى ١٩٧٦م.
٦١: في النقد الأدبي، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف١٩٩٢م.
٦٢: قضايا جديدة في أدبنا الحديث، د/ محمد مندور، ط دار الآداب (بيروت)، ١٩٨٥م.
٦٣: الكامل في التاريخ لابن الأثير، تـ : أبو الفداء عبد الله القاضي، الناشر: دار الكتب العلمية، ط ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٦٤: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط دار الفكر (بيروت)، ط الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٦٥: لسان العرب، لابن منظور، ط دار صادر (بيروت) ، ط الأولى (د، ت).
٦٦: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، لأبي القاسم بن بشر الآمدي، ط دار الجيل بيروت، ط الأولى ١٤٤١هـ / ١٩٩١م.

٦٧: المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ط دار العلم للملايين، (بيروت)، ط الثانية ١٩٨٤م.

٦٨: معجم الشعراء، للمرزباني، تـ د/ فاروق اسليم، ط دار صادر بيروت، ط الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

٦٩: مقدمة ابن خلدون، تـ د/ علي عبد الواحد وافي، ط دار نهضة مصر٢٠٠٦م.

٧٠: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، تـ محمد بن الحبيب الخوجة، ط دار الكتب الشرقية(د.ت)

٧١: موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ط مكتبة الأنجلو المصرية، ط الثانية ١٩٥٢م.

٧٢: نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة : حسن عون، ط منشأة المعارف، ط الأولى ٢٠٠٠م.

٧٣: النقد الأدبي الحديث، د /محمد غنيمي هلال، ط دار نهضة مصر(القاهرة)، ط الثالثة ١٩٦٤م.

٧٤: نقد الشعر، قدامة ابن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط دار الكتب العلمية (بيروت)، (د – ت).

٧٥: الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تـ محمد أبو الفضل وآخرون، مطبعة الحلبي، ط الرابعة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.